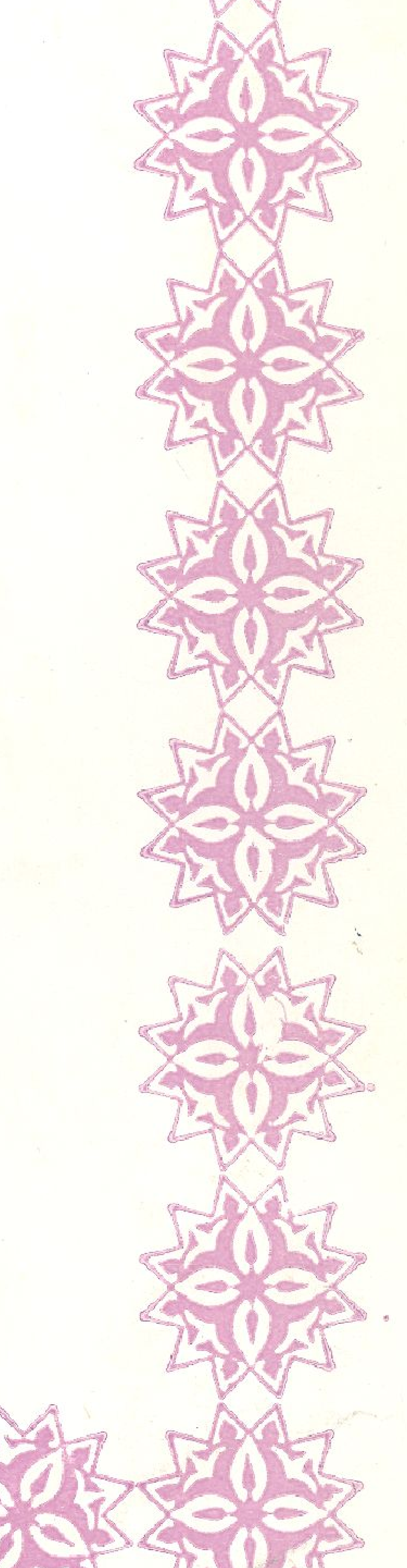
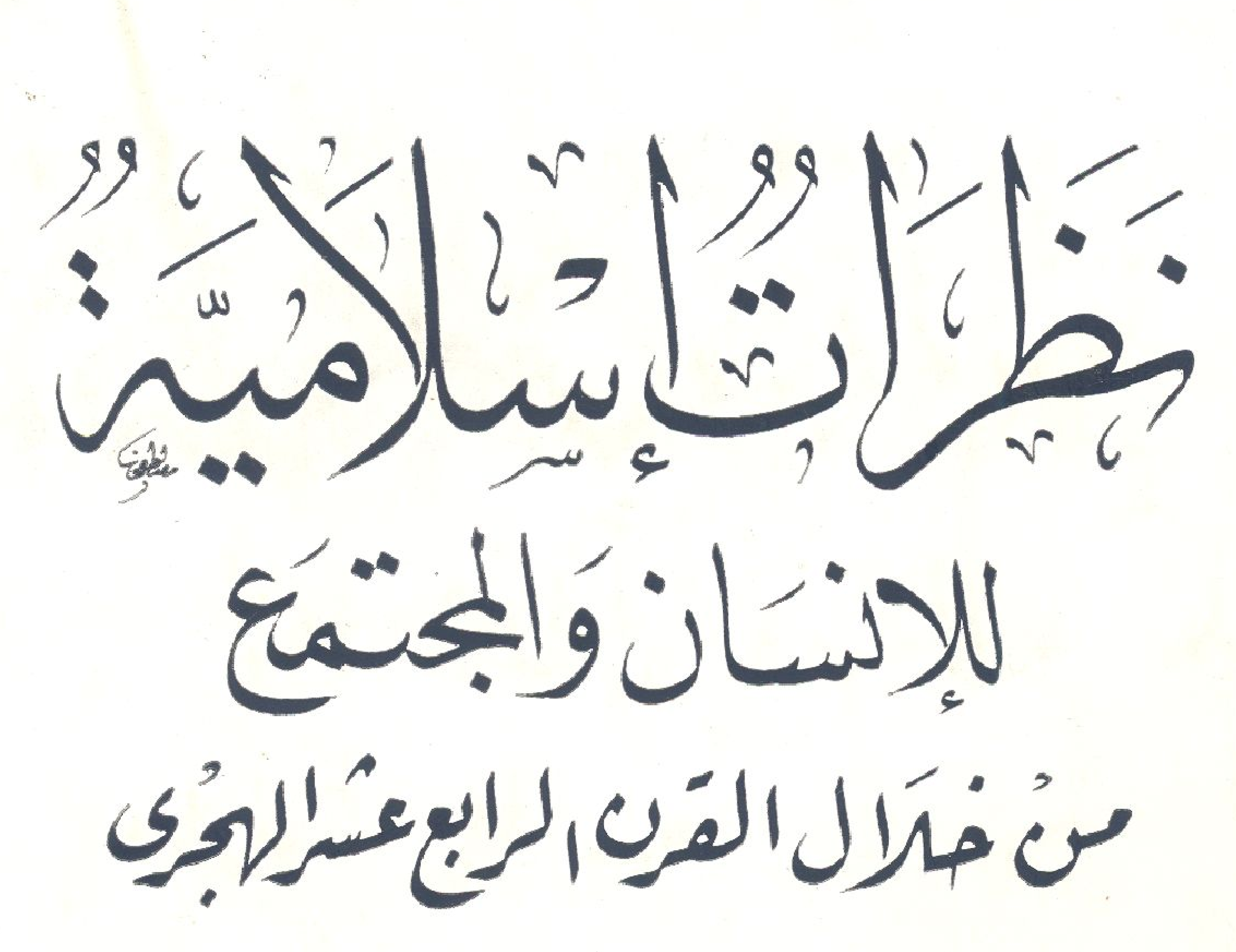
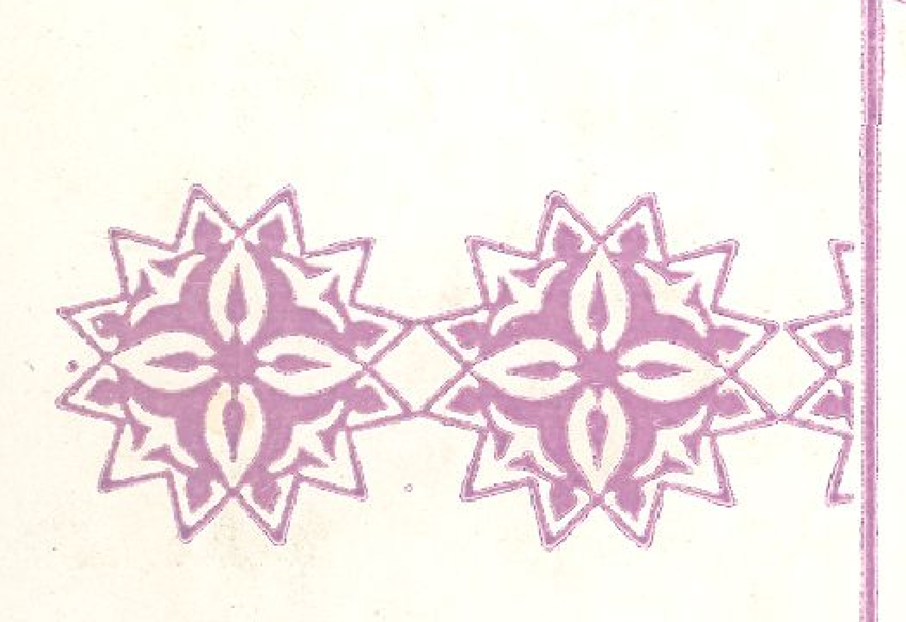
دكتور رشدي فكار







الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

د/ ابراهيم محمد ابراهيم حريبة
القاهرة

دكتور رشدي فكار

نظرات إسلامية

للإنسان والمجتمع

من خلال القرن الرابع عشر الهجري

- أربعة عشر قرنا والاسلام ها هو ذا يتحدى يا خاتم الأنبياء ·
- أمتنا العربية بين الاسلامية والعلمانية ·
- قضية انسان الاسلام ووسائل الاعلام الأجنبية ·
- قضية النمو الديموغرافي ومحو الأمية ·
- رأى فى اشكالية الأمية ودور الكتاتيب القرآنية فى محوها ·
- مع رواد الفكر العالمى المادى والروحى وتاملات فى مصير الانسان ·

(أ) بوخارين المفكر المادى ـ ومأساة الانسان ·

(ب) جيبتون المفكر الروحى والزمن والخلود ·

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون : ٩٢٧٤٧٠

الطبعة الأولى

المحرم سنة ١٤٠١ هـ ـ نوفمبر سنة ١٩٨٠ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار ـ لاظوغلى ـ القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن والرحيم

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

« صدق الله العظيم »

(النحل : ١٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

نحمد الله ونستعينه ونستهديه .. ونسأله العون والتوفيق .. وبعد . .

● بمناسبة نهاية — قرن من مسيرة الإسلام الخلاقة وصموده .. وبداية القرن الخامس عشر الهجرى .. الذى نأمل أن يكون بداية خير وبركة — **للانسانية كلها** — فى مشارق الأرض ومغاربها . وذلك بتحرر الفكر البشرى — من قيود التعصب والمنفعة والأنانية — والالتزام بالمنهج العلمى السليم والنظرة الموضوعية الشمولية — الباحثة عن الحق وخير الإنسانية وسعادتها ..

نتقدم بهذه الدراسات « **نظرات إسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى** » .. تلبية للرغبة الملحة لقراء العربية — فى العالم العربى والإسلامى — وذلك كما سبق أن ذكرنا فى مقدمة — المجموعة الأولى — « **تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع** » . . للاستفادة من إنتاج هذا المفكر الإسلامى الكبير . . فى المحيط العربى والإسلامى . . باللغة الفرنسية أساساً . . إلى جانب اللغة الإنجليزية . .

● والمؤلف غنى عن التعريف — فهو — **الأستاذ الدكتور رشدى فكار** — الأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس — بالرباط — والأستاذ الزائر بالجامعات العربية والأوروبية .. والعضو المشارك فى أكاديمية العلوم « مجمع الخالدين » بفرنسا — وعضو الهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية ..

والمرشح لدى الأكاديمية السويدية — منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ لجائزة نوبل فى الأدب ..

● وهذه الدراسات تقع فى سبعة فصول .. كل فصل منها يتناول قضية – منفصلة – من قضايا الإنسان والمجتمع .. وهذه الفصول جميعها – تلتقى – فى نظرة شمولية من منطلق إسلامى ، يحتكم إلى العقل ومناهج العلم – بعيداً عن التعصب والانفعال – بل من واقع ماكتبه بعض الغربيين «إن عبقرية الإسلام وقدرته الروحية ، لا يتناقضان ألبتة مع العقل كما هو الحال فى الأديان الأخرى ، بل يتمشى أساساً مع واقع الإنسان .. كل إنسان .. بماله من عقيدة مبسطة ، ومن شعائر عملية مفيدة» ..

وليطرح فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى – والقرن العشرين الميلادى – أن لاصلاحية لإنسان فى غيبة التزامه بتعاليم السماء ..

● وكما ذكرنا من قبل . أنه نظراً لتعدد الاستشهادات والنقل من هذه الدراسات الهامة فى البلاد العربية . . نشير بعد المراجعة والاستئذان – من سيادة المؤلف – أن هذا هو النص الكامل والوحيد – باللغة العربية الذى لم يلحقه أى تحريف أو تشويه ..

ونحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وهو الموفق للخير . .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً » .

مكتبة وهبة

الفصل الأول

أربعة عشر قرنا والاسلام ها هو ذا
يتحدى يا خاتم الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم
أربعة عشر قرنا والاسلام ها هو ذا يتحدى يا خاتم الانبياء

كأنى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج لتوه من غار حراء ينظر مرة إلى السماء وأخرى يطرق برأسه إلى الأرض فى تفكير عميق ، يمشى فى ثبات ، وتواضع ، وثقة . لقد بدأ الوحى لخير مبشر ونذير ، وليكون داعياً إلى الله بإذنه . الكون من حوله يسبح بجباله ،ووديانه ، بطيره وحيوانه ، والكل خشوع من خشية الله ورهبته ، ومكة أم القرى ساكنة إلا من رجل راكع فى ذل واستكانة وحيرة أمام أصنامه ، أو راع عائد بغنمه من مراعيه ، أو شيخ وقور جالس ومن حوله أبناء عشيرته وغيرهم يتبادل معهم الحديث قاصاً لسير الأمم الغابرة ، ومشيداً بفرسان العرب وبطولاتهم ، وأطفال على مقربة منهم يمرحون ويلهون ، أو شاعر ينشد بجانب ديار متواضعة وقد التف حوله من التف فضوليون أم عاشقون ، أو سائل يسأل عن عودة القوافل ، ومصيرها ، متلهفاً للقاء عزيز أو لسماع أخباره . . . وأشرق النور على مكة ، مع اقتراب خطوات العائد من الغار ، حاملا لها الخلود فضمته بأزقتها الضيقة ، وكأنها تعانقه حتى مدخل الدار .

إيـــه مكة ؟ ؟ اليوم عرسك ، عرس الكون ، لقد ربط لساعته ، وعلى جنباتك من جديد حوار السماء مع الأرض ، فى أتم وأوفى صوره وخاتمها ، لقد دخلت رسالة التوحيد ــ أقدس رسالة للبشرية حملها إبراهيم، ومن بعده موسى وعيسى ــ فى آخر مراحلها مع يتيم قريش ، يتيمك يا مكة (ما أروع اختيار الحق سبحانه ، لخاتم الأنبياء) . إنه محمد ابن عبد الله الأمين .

وانطلق بمسيرة الخلود مجسداً لإصرار المؤمن بصدق رسالته ، والواثق من نصر الله له فى النهاية ، مهما كانت الشدائد ومهما طالت المعاناة . . . . غداً سيفرح قوم ، ويحزن قوم ، ويسخر قوم . . . يقولون هذا ساحر ، هذا مجنون ، محمد هذا لا نعرفه ، تقىء أكباد الحقد دماً ، وتبدأ أعياد الفقراء ، أعياد مساكين الأرض ، ويتحرك ركب الإنسانية ، مبتدءاً من جمع الإخوة فى دار الأرقم سراً ، خطوات هادئة وبلا ضوضاء .

وتتداول أيامك يا مكة ، كأيام للكون ، لن تنسى الأجيال لحظاتك ، ستعد ثوانيك تتذكرها كأقدس وقائع أبدية وأخلد أحداث أزلية . . . ومدينة الوفاء والنصرة تتقاسمها ، تتقاسم آلامك وتتقاسم معك الأفراح . وعصور الإشراق تتحرك مواكبها لتعم الدنيا ، تشق الصحارى ، تجتاز الوديان ، تقوض صروح الباطل ، تهزم جبروته ، زادها الإيمان وسلاحها الذى لا يقهر هو الثقة فى انتصار الحق ، لا تبخل بالفداء والتضحية ، ولا تتردد أمام الحواجز والعوائق ، لا يخيفها عدو ، ولا يرهبها ظالم أو طاغية ، تقهر الجيوش العاتية فتنهار أمام طعناتها المحكمة ، وتتفتت بقدرة ضرباتها المستميتة ، لا من أجل طمع فى الدنيا ، ولكن لإعلاء راية الله ، ولا شىء إلا راية الله . . .

إنها مواكب جماعة الخلود بسطاء المظهر ، أنقياء المعدن والجوهر ، جماعات محمد ، خاتم الرسل والأنبياء ، انطوت تحت راية الله والتقت فى حبه ، قانعة ، فوحد قلوبها وأفئدتها وألسنتها حين التسبيح بذكره وترتيل آياته فى الآفاق ، لا فرق بين عربى ، وعجمى ، بين فقير وغنى ، لا تخشى الموت طلباً للحياة ، وإنما تطلب الموت استشهاداً ، لتوهب لها أشرف وأكرم أنواع الحياة . . .

وتوالت السنون والقرون ، أموية مرة ، وأخرى عباسية ، وعثمانية . . . عصبية كانت أم فئوية ، أم طائفية . منها من أعطى ومنها من أخذ ، منها من أدين ومنها من أدان . . . من رجالها من زاغوا فأزاغ الله قلوبهم . .

ونسوا الله فنسيهم ، ودمرت أممهم . . . ومنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنصر ملكهم ، وكرمهم فى الدنيا بعزته ، أو استشهدوا فشملهم فى الآخرة برحمته وجنته ، وهكذا انهارت دول وقامت أخرى وتلاشت ، والاسلام ها هوذا ، أربعة عشر قرناً يتحدى ، يتحدى يا رسول الله (عليك أفضل الصلاة ، وأزكى السلام) ، مصداقاً لما أوحى إليك ، فى القرآن من ربك . . « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** »(١)

الإسلام يتحدى يا خاتم الأنبياء برجالك ، بالمؤمنين « **الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون** »(٢) ... يتحدى بـ «الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».. نعم صدقت يا رسول الله مبلغاً ذلك عن ربك، مبشراً ومؤكداً «**أولئك هم الوارثون**»(٣) .

برهان لرسالتك وإعجازها من واقع التاريخ الملموس يشهد ، يعترف به الأعداء والأدعياء على حد سواء، ويستشهد به رجالك الدعاة والأصفياء، ومن خلفهم الملايين ؛ ولكن كما كانوا منذ البداية متواضعين بسطاء ، ولكن على عدوهم أشداء ، ولعهدهم أوفياء ، يقفون وقفة رجل واحد أمام كل مكابر ، وفى وجه كل ضال ، وعند كل موقع ، وفى كل الساحات والمواجهات ، مرددين بكل اعتزاز ، وبكل ثقة ، وبصوت خاشع لربهم وفى كل صلاة، وفى كل حج ،وبعد أربعة عشر قرناً : لبيك..لبيك اللهم لبيك.. لا شريك لك لبيك . . . خمسة عشر قرناً والإسلام ها هوذا يتحدى يا خاتم الأنبياء .

***

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) المؤمنون : ٢ ــ ٤

(٣) المؤمنون : ١٠

الفصل الثاني

أمتنا العربيـــة
بين
الاسلامية والعلمانية



بسم الله الرحمن الرحيم

أمتنا العربيـــة
بين
الاسلامية والعلمانية

دون الخوض فى تفاصيل تاريخية أو خطابية أو هامشية ، قد تجد مكاناً لها فى عرض وصفى ، أو سردى للأحداث أو لمواقف مفتعلة ، أو دفاع عن آراء مبيتة ، سنحاول طرح اشكالية أمتنا العربية فى إطار محدد ما أمكن وهو « أمتنا العربية إسلامية أم علمانية» ؟ ؟ إذ ليس الهدف من التساءل هو وجود « أمة عربية » وإنما حـــول ماهيتها ، وانتمائها ، وكيانها ، فى القرن العشرين .

وهذا يدفعنا بالضرورة وتحاشياً لكل معرفة جزافية ، أو تقنين إنشائى ، أو انطباع تذوقى إلى مسيرة هادئة ، تدور حول المفاهيم الثلاثة : العربى ، الإسلامى ، العلمانى ..وهى المفاهيم المتصدرة ويتمركز حولها العرض، لننتهى بتحديد واقع الاختيار كما هو كائن . وفرضه التاريخ ، وأملاه جوهر هذه الأمة .

ولنبدأ بمن هو العربى إنسان أمتنا المتمحورة حوله هذه الاختيارات ؟ إذا ما احتكمنا فى تعريفه وتقنينه للمجازفات فسوف تصل بنا فى النهاية لدى المتفائلين المدعين إلى القول بأن كل ما هو عظيم ، معطاء ، فارس ، أبى ، فهو عربى ولو باسم ما كان فى التاريخ . ولدى المتحفظين المفندين فى هذا العصر ،إلى أن العربى يرمز إلى القطيعة ، والتمزق ، والتجزئة ، وربما الاستلاب والضياع فى نهاية المطاف . وربما فريق ثالث يمنطق الواقع أيديولوجياً فيصور لنا العربى ، صاحب الهموم وحامل أثقال التراث ،

والمتكلم بالضاد ، والقابع فوق أرضه بإصرار ، يدافع عن ما تبقى له ، ويبكى على ما فقد منه ، يجمع بين الروحية كدعامة تراثية ومتطلع للعلمانية ، يتأصل ويتعصرن ، يتقادم ويتقدم ، يتغنى بالشعر ويقود الصواريخ . هو موسوعى يعرف كل شيء ، ولكنه يتساءل هل عرف ذاته ؟ ويظل موكب النقاش ومسيرة الجدل حول هذا العربى الذى لا يتغنى إلا بالاتحاد والوحدة، ولكن أعماله ربما تتنكر لها وتنكرها ، هذا العربى المعجز فى قدراته وانتصاراته، كما هو محزن فى نكباته وهزائمه . . .

لندع هذا الجانب الحماسى يعبر طريقه بانفعالاته ، وتحفظاته ، وانطباعاته ، غير منكرين عليه ، بالرغم من تنوع حججه وتباين مواقفه ، التقاءه فى قاسم مشترك وهو الغيرة على هذا الإنسان العربى ، إنساننا ، والحرص على حرق المراحل واختزال الأزمنة التاريخية المتوعكة الدائرة المتراجعة لأمته ، فله من هذه الزاوية كامل المشروعية ليعبر مهما كانت المجازفة ، لنقف مع العربى قليلا ولنستنطقه بهدوء على الأقل عبر دوراته التاريخية لا كمجرد تسلسل واسترسال لتاريخ المؤرخين، أو تصحيح لوقائعه التاريخية باسم علمية التاريخ ، وإنما متجاوزين ذلك إلى مستوى التعليل والهوية لهذه الدورات فى إطار فلسفة التاريخ ، بغية تحديد مدلول ومضمون إنساننا العربى .

العربى عرف دورات تاريخية رئيسية ثلاث ، بلورت مدلوله ومضمونه فى كل دورة ، ولا يمكن التحدث عنه علمياً فى غيبتها ، فهى المجسدة له بقدر ما هو مجسد لها . هذه الدورات هى على التوالى دورة سلالية عشائرية قبلية ، بعصبيتها ونعراتها ، ثم دورة ثقافية انتقالية تهدف إعادة صياغته بقيمها ومبادئها ، إلى دورة حضارية برسالتها الروحية والإنسانية . من العربى صاحب السلالة إلى العربى صاحب الثقافة فى دورته الانتقالية بين التطلع والارتداد ، إلى العربى صاحب الرسالة الحضارية الخالدة ، دورات تتعاقب وتتراجع ، على ضوئها يشرق أو يتقلص ، يتسع أو يضيق مدلوله ومضمونه .

فى الدورة السلالية ، وهى الدورة المبدئية المكونة لمقومات ذاتيته تمركز مضمون العربى حول العشيرة ، عربى العشيرة . من عشيرة الأقربين سلالة العرق والنسب إلى عشيرة الحى والديار البيئية بما فى ذلك من أفخاذ وبطون وعمائر ، تباينت فى ازدلافها لتشكل قبائل ، بحثاً عن الكلأ والماء وضروريات الحياة ، أو طلباً فى الاستجارة ، أو تصدياً لحرب ، أو قياماً بغزو . . . وخصائص العربى المحددة لمضمونه فى هذه الدورة تكمن فى سيادة الحمية والنعرة والعصبية والحماسات فى مختلف مظاهرها ، والتغنى بأمجاد الذات العشائرية والقبلية ، وتحكم فاعلية الكلمة وبيانها ، وقدرة السيف وقوته ، (أهمية الشاعر والفارس) فى تحديد العلاقات وتحريكها إيجابياً أو سلبياً . . .

ولقد حاول بعض الباحثين فى الأنثربولوجيا العربية عشية ظهور الإسلام وما سبقه انطلاقاً من دراسات « روبرتسن سميث » وغيره ، أن يضيف إلى نموذج عشيرة الأقربين للسلالة العرقية ، وعشيرة الديار والحى للسلالة البيئية ، نموذجاً ثالثاً وهو العشيرة الطوطمية كسلالة دونية ، لا عرقية ولا بيئية ، لا تنتسب إلى عرق أو إلى بيئة تعيش فيها ، كوادى أو جبل أو هضبة ، أو ديار ، أو حى ، وإنما إلى طوطم قد يكون نباتاً أو حيواناً أو جماداً بصفة عامة . . . ونعتقد أن هذا النوع من العشائر ، من الأولى ، إلحاقه كقطاع متخلف لسلالة عرقية أو بيئية ، باعتبار أن الانتساب نعتى لا حقيقى . لأن العربى ما اعتقد أبداً أنه من سلالة الحيوانات أو النباتات أو الجماد ، وإنما من باب الفخر والتحلى بصفاتهم ، فهو ينتسب نعتاً إلى صعود الجبل لا فعلا إلى الجبل ، وإلى قوة الأسد لا إلى الأسد . وإلى صبر الجمل لا إلى الجمل ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك وهو أن الأصنام والأوثان ما كان يعبدها فى حد ذاتها ، وإنما لتقربه إلى الله زلفى بنص القرآن الكريم .

ومع تكثف الازدلاف بين القبائل لأسباب دينية أو حربية أو مناخية ، بما فى ذلك البحث عن الكلأ والماء ، وبقية الضروريات للحياة تبلوره القرى وأم القرى ، واتسعت سلالة البيئة أى الانتماء إلى الديار والأحياء على حساب

السلالة العرقية التي لم تختفى ، وإنما احتفظت بخصائصها المميزة على مستوى التعصب والاستمرارية ، رغم تغلفها فى السلالة البيئية ، بل حاولت أن تقاوم أى إذابة تفقدها هذه الخصائص ،ومن هنا كانت أهمية نسابة العرب ، وتأكيدهم لواقع التسلسل وشجرة النسب أباً عن جد .

فظل العربى فى دورته السلالية (ولا نقول العنصرية الجنسية كما التبس لدى البعض لأنه يصعب الدفاع عن نظرية جنسية عنصرية على مستوى الميز علمياً نظراً لتداخل الأجناس البشرية عبر التاريخ ، فالعنصرية ما هى إلا إفراز لمطامع استعمارية وإمبريالية للسيادة على الشعوب المستضعفة ، ولا يمكن بحال علمياً قبول عنصر صافى إلا فى المجتمعات البدائية والمنغلقة والتى تتناسل فيما بينها ، وكثيراً ما تنتهى بالانقراض) عبر معتقداته وتقاليده وأعرافه وعاداته وفياً لذاته المتمحورة حول العشيرة . من أجلها يحارب ، وبها يفخر ويفتخر ولتدعيمها ينجب ، وبمحاسنها يتغنى ، نافراً من أى قيم أو مثل أو مبادىء لا تتم لحساب ذاتيته العشائرية ، ولا تتمشى مع ما ينتمى إليه . هكذا كان شأنه وماهيته وكنهه حتى ظهور الإسلام ومبعث خاتم الأنبياء . . .

ومع ظهور الإسلام عرف العربى دورة انتقالية ، دورة الصهر والاستئناس لما هو إيجابى فى داخله ينميه تحت ريادة النبوة بالوحى منيراً الطريق للعقل . وما هو سلبى يحاول حصره وحصاره توطئة لإذابته مرحلياً ، أو تحويله من عامل إعاقة إلى حافز دفع لمسيرته التاريخية نحو آفاق أوسع وأشمل تعمم الانتماء إليه تحت راية الإسلام . فلقد جاءت تعاليم السماء مخاطبة الإنسان العربى ، ومخاطبة من خلاله ومن حوله الإنسان ، فى كل مكان وزمان لتتجاوز به دورة السلالة إلى دورة الرسالة ، مركزة على إحداث تغيرات جذرية فى ذاته أساساً قبل أن تقوم بتغيرات فى محيطه ومجاله ، فأكدت الرسالة الخالدة على أن تغير النفس فى حد ذاتها سابق لكل تغيير ، وأن ذات غير واعية بما لديها لا يمكن أن تعى بما لدى الآخرين .

ا نت مسيرة الإسلام الكبرى لبناء الإنسان العربى ليصبح نموذجاً كونياً لا عشائرياً وفتحت المدرسة المحمدية الخالدة أبواب الدعوة لتشيد هذا النموذج الجديد ، وأقبل الفوج الأول على دار الأرقم ليكون النواة وليؤهل لأجيال المعلنين بالتعاليم الربانية والمواجهين حتى فتح مكة ، وأكمل الله على لسان رسوله الأكرم (عليه السلام) الدين وأتم نعمته ، وكمل بكماله وبإتمام النعمة بناء النموذج للإنسان الكونى المدعم برسالة السماء ، فى مختلف بقاع الأرض ، ولكل أزمنتها إلى يوم الدين ، وذلك من خلال العربى لا السلالى صاحب العشيرة ، ولكن الكونى صاحب الرسالة ، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعميم مفهوم العربى المتطلع حينئذ إلى الإشراق كونياً رفعاً لكل التباس وتغميض بقوله « أيها الناس إن الرب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب أوأم ولكنها اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » ...

ولكن هذه الدورة الانتقالية لم تعرف فقط نموذج العربى المنصهر المستجيب قلباً وقالباً لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الكونية ، والذى قرر حمل أمانة الرسالة بقناعة واقتناع بلا تفريط ولا إفراط ، وإنما عرفت نماذج الرافض والمقاوم ، والمعترض ، والمتردد ، والمقنع ، والمتحفظ ، والمنافق ، ممن شكلوا السواقط الترسيبية للدورة السابقة كما هو الحال فى كل دورات التاريخ . لأن تجاوز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعته المتفانية فى حب الله ومرضاة نبيه إمكانات الترسب ، ومكونات التقنع والتحجر ، فهناك فئات أخرى من المعاصرين لهذه‌الدورة الانتقالية صهر مظهرها ، وبقى جوهرها بخلفياته ومبيتاته وحماسات الجاهلية ، ليشكل معيقاً فورياً أو نفعياً ، أو وقتياً للانطلاق بالدورة الثالثة المشعة نحو آفاقها الحضارية بالفتوحات دورة العربى المتجاوز صاحب الرسالة الخالدة كونياً .

وشكلت حروب الردة أرضية المواجهة بين النماذج المتطلعة إلى الأمام والأخرى المشدودة إلى الخلف ، بين الارتداد إلى الدورة السلالية أو

الزحف إلى الدورة الحضارية . اختيارات غائية ، دون شك ، لمصير أمة تبحث عن الإشراق فى الكون على أكتاف دعاتها وتحمل مقوماتها الخالدة بمبادئها الإسلامية مندفعة إلى الارتقاء ، وفى نفس الوقت تواجه بكل حزم دموى ، حواجز أدعيائها من حملة الرواسب المجرورين بالانتكاس إلى الوراء .

وقد كان ، وتجاوز العربى المؤمن المسلم الرائد محنة الاختيار بالانتصار ، بالانتصار على نفسه أولا لينتصر بعد ذلك فى كل المعارك وعلى كل الساحات وفى كل المواجهات واختفى عربى الجاهلية فى الأعماق ليترسب فى داخل الذات ، وليترك لعربى الرسالة المعبأ « بأركيتيب » سيطر على شعوره كما غطى « اللاشعور الجمعى » ونعنى « بالأركيتيب النفسى » مستعيرين التعبير من « يونج » نموذجاً سلفياً صالحاً متجسداً فى اللاشعور الجمعى كوجدان روحى ، نرمز إلى تعبئته بصيحة « الله أكبر » ونلجأ إليه فى الملمات والمواجهات الكبرى كرصيد وقدرة تعبوية تلقائية لدى الملايين وحينما يهتز هذا اللاشعور الجمعى الوجدانى الروحى يهتز من فوقه الشعور وتطفو من تحته رواسب الجاهلية فتحول الأزمات إلى انتكاسات ، وترتد إحباطياً فى شكل لا واعى ومشتت لتسقط على الآخرين خطيئة الذات وتلقى عليهم بفائض الإدانة .

وهكذا عرف تاريخنا الطويـــل عربى الانتصار كما عرف عربى الانتكاس ، عربى الانتصار عربى الإسلام اتسع مدلوله فى دورته الحضارية ليغطى الفارسي والرومى والحبشى إلى جانب القرشى ، من سلمان الفارسى إلى صهيب الرومى إلى بلال الحبشى إلى جانب على الهاشمى القرشى ، عربى حضارى كل يتمنى أن ينتسب إليه ، ويحمل اسمه من خلال صاحب رسالته الخالدة للكون ، وكل يفخر بالانتماء إلى أرضه وحضارته وعمرانه ومدنه المشعة فلسفة وعلما وأدباً وفناً وجوامعه ومجالسه وحتى غزواته ؛ أما عربى النكسات والرواسب والانتكاس فقد ضاق وتقلص مجاله فضاق وتقلص

بالضرورة مضمونه ومدلوله ، فانطوى فى شعوبية ذاته يبترها فى إحباطه وإسقاطه جزئية تلو أخرى ، وتنكر فى بداوته يقنع فيها خلفياته ، مفتعلا للانتصارات فى هزائمه ، مستبعداً لكل إدانة مع أن الإدانة منه وإليه ، ومن ثم « فابن خلدون» فيلسوف التاريخ الناضج لم يك جزافياً فى حكمه، بل أقر معللا دورة العربى المتكس فى عصره متجهاً بها إلى التعميم حسب معطياته الفكرية المحددة . وإن كنا نرى على ضوء حركة التاريخ نموذجاً مزدوجاً للعربى فى داخل إنسان واحد ، بمعنى عربيين فى داخل عربى واحد : لا يتصارعا حسب المفهوم الطبقى الغربى فحسب ، وإنما يتصارعا نفسياً بين جذب الكبت والتطلع إلى التسامى ، بين الانقباض والإشراق . وكل نموذج لهذه الازدواجية يجسد حين سيادته على الآخر واحتوائه له دورة تاريخية نموذج عربى الترسيب يسود فى دورته التعتيمية التغميضية بتراجعها وهزائمها وتطرفها وإحباطها ، ونموذج عربى الإسلام يسود فى دورته المشرقة المشعة بتطلعاتها وانتصاراتها وسماحتها وإبداعها.

وجاءت دورتنا المعاصرة بهمومها لتلقى على جسد العربى بفائض النكبات . من نكبة العثمانيين فى خلافة متداعية ، ألزم العربى على دفع جانب من ثمن هزائمها ،إلى نكبة الاستعمار بأنيابه ومكره وحيله وخداعه، وطرحه لمبدأ الفرقة حتى يسود ، وتسخينه للنعرات حتى يفتت ما مزق ، ويوقظ الترسيب الكامن فى الأعماق بأطروحات معصرنة أيديولوجياً ، ومستحدثة منهجياً ، ومبررة علمياً ، ولم يجد العربى المسلم الواعى له من حصن أمام تعدد النكبات إلا الاحتماء فى « لا شعوره الجمعى » مجسداً فى سلف الفتوحات والانتصارات فاستعاد سيادته نسبياً على ذاته ، قبل أن يستعيدها على أرضه ، وهب بصيحته الخالدة « الله أكبر » معلناً الجهاد وباحثاً عن الاستشهاد ، مؤذناً ببداية مسيرة المعاناة فى عصر تألبت عليه فيه قوى الشر ، من داخل صفوفه اللاواعية والمارقة ، وعلى يد أعدائه وخصومه ، وغاص العربى فى زمنه التاريخى الدائر يستجمع ما تبقى له ، لينهض رغم كل الطعنات والتسلط والكيد والخداع ، وبدأ بجسده المتوعك

يحارب فى كل الجبهات ، يحارب من يريد الاستحواذ عليه من داخل ذاته عقلياً وفكرياً باسم افتعال عصرنته ، وجره إلى التسليم بعدم صلاحيته لعصره ، كما يحارب من يستعمر أرضه وينهب خيراته وثرواته ، مستغلا ضعف قواه ، وتوالت عليه الطعنات من داخل وخارج الدار .

ومع هذا فما لديه من إصرار ، وما يتمتع به من صبر فطرى نتيجة لمنطلق تعامله ومواجهته لقساوة الطبيعة فى صحاريه الممتدة الجرداء بقيظها الحارق ،(لأن فى داخل كل عربى منا هذه المكونات الأولى للوراثة وللتراث) جعله قادراً ، حينما يتعامل مع محنه الكبرى كعملاق يتحدى ، كما يصبح مغشوشاً ومزيفاً حينما لا يستطيع اكتشاف أعماقه وما فيها من مكنونات الصبر والإصرار . لقد فجر الإسلام هذه الطاقة الوراثية التراثية إيجابياً ، بعد أن كانت حماسات الجاهلية تفجرها سلبياً ، وبفضلها تحت راية الإسلام تمكن العربى القادر المتطلع من المواجهة وعلى كل الجبهات ، وبتجاهلها سقط العربى القاصر متنكراً فى الملذات . . .

واليوم كالأمس ، نشاهد هذا العربى المتساقط ، كما نشهد صحوة عربينا المسلم ، وهو يستعيد ذاته من نير الاغتصاب وأرضه من ذل الاحتلال مستجيباً لوجدانه الخالد ، هادراً كما أشرنا من قبل بصيحته التى لا تقهر « الله أكبر » فيتحول جسده إلى متفجرات تدمر وتدمر ولكن لا تنهزم ولا تؤسر ، لأنه كعقل واعى لا يؤمن بالمهارب ولا يستوحى المبررات ، ولكن يلتزم بالشهادة والجهاد والاستشهاد كما كان أجداده وسلفه الصالح أصحاب رسول الله عليه السلام . . .

ونهض عربى الإسلام فى القرن العشرين ليقود ويتصدر فى الحركات المواجهة للاستعمار . فلا ينكر إلا جاهل أو جهول ، أن صيحة التحدى كانت تخرج دائماً من بيوت الله شعارها « الله أكبر » ، وغايتها الجهاد والاستشهاد . وعرفت مختلف ساحات أمتنا فى مشرقها ومغربها دم الفداء الطاهر لجسد تكبله السلاسل ، وهو ينزف قرباناً لإعلاء راية الأمة التى هى راية الله ، كما عرفت بعد ذلك مواكب الوصوليين المتاجرين بهذا الفداء . إنها مواكب الشعارات التى لا تلتحم بالأرض أو تعبر عن الذات . . .

وتكثفت المواجهة مع تفجر خيرات العربى من بطون أرضه فى الجزيرة العربية التى تضم بين جنباتها أقدس جسد لأنبل رسول عرفته البشرية ، كما تفجرت فى بقاع الإسلام وحيثما كانت رايته ، من إيران إلى بلاد المغرب العربى إلى أندونيسيا إلى نيجيريا ، وتيقن المتربص بنا أن نهضتنا ، مجسدة فى صحوة الإسلام لا محالة بالغة أجلها ، إن لم يضع لها المخططات ليوقف مدها ، ويقيم أمامها الحواجز ليؤخر سيرها ، فعوم أرضنا وفكرنا بالاشكاليات المفروضة والمفتعلة ، بهدف الإعاقة ، ليرهق جسدنا ويعمى بصيرتنا ، من صهيونية العنصرية لاغتصاب الأرض ، إلى علمانية القومية لتعتيم العقل ... ويحول معاناة أمة خالدة عبر التاريخ إلى مقالة إنشائية أو قصيدة شعر ، بألفاظ معصرنة لمضامين مغشوشة ..

ومرت ثلاثون عاماً فى الوحل لزمن تاريخى متوعك ، ودائر يتكرر ليتراجع ، تنوعت فيه الهموم ، وطفى فيه عربى المواسم ليتصدر فى بداية الأزمات يشعلها ، ويختفى مهزوماً أو هارباً حين شدتها ، ومحنها ، وكروبها ، متلهياً فى متاهاته ينادى بفجره الكاذب لا قدرة له ولاحول وبقى عربى الإسلام ، عربى الشهادة والجهاد والاستشهاد ، ينتظر فجره الصادق وفى كل يوم يتأكد له ، أنه لا فجر لهذه الأمة فى غيبته ، فلن تستمع الملايين لصيحة الزحف إلا من مآذنه . . .

لقد عرفت أمتنا نتيجة لهذه المواجهات خلال ثلاثين عاماً صراعات وصراعات ، صراعات دموية لم نبخل عليها بالدم الطاهر لأبنائنا ، وصراعات مزيفة غطت بضبابها ملاحم الاستشهاد ، وضاع جانب من الأرض فى ملهاة الزيف ، ونزف الدم واستنزفت العقول فى معارك التضليل ، وأصبحت المشاكل المصيرية للأمة تطبع حلولها بالهواية والارتجال . وقلد جانب منا فكر عدونا وحمل شعاراته لينقذنا فأنقذ عدونا.

فهذا يتكلم بلغة عصر القوميات ولم لا ، فالغرب فى نهضته تمحور حولها وغاب عنه نتيجة للتسرع وعدم الغوص فى العمق ، أنها إفرازات

لهموم الغرب ومسيرته انطلقت في البداية مزكية بعوامل موضوعية ، من تصارع الأقليات مع الجماعات المسيطرة لتشكل إطاراً لوطنيات ضيقة بانتصارها وتتقولب باسم السيادة والدستور لتصبح دولا ، تتطلع إلى وطنيات كبرى (من وحدة إيطاليا سنة ١٨٥٩ إلى وحدة ألمانيا سنة ١٨٦٦ – ١٨٧٠ حتى النازية وطموحاتها للوطنية الأوروبية ، وحركة البولنجيزم في فرنسا ...) وخصوصاً تجربة الإمبراطورية النمساوية الهنغارية التي حاولت خلق وطنية كبرى تجمع توليفياً : التشيكي ، والسلافي والسلفاني ، والكراوني ، في إطار تنظيم سياسي ولكنها فشلت . . . . وفي عقر دارها وقبل أن يقلدها المرتجلون عندنا لهذه الوحدات القومية التوليفية المفتعلة التي تلد لتموت .

ثم جاء من يتكلم عن اكتشافه لمعجزة الخلاص لأمتنا باسم العلمانية ، لقد كان خلاص الغرب بفضل العلمانية فلم لا تكون لنا أيضاً ؟ . لا شك أن الغرب بعد عصوره الوسيطية المظلمة وتحجر العقـل في ظل بعض الأنسقة الكنسية التي فسرت المسيح (عليه السلام) لحسابها لا لحساب مسيحيته السمحة ، فعرّت الانسان لديهم من عقلانيته ، فلا يفكر إلا بإذن منها ولا يتكلم إلا بحسبان ، وألقت به بين سحب التغميض وضباب التجريد وميتافيزيقاته ، عرف ردود فعل مع بزوغ عصر النهضة عندهم وقد أسهم فيه كما هو معروف ومسلم به الآن ، العقل المسلم العربي كمجرد مثال (ابن رشد وما حوله) ردود الفعل هذه تجسدت أولا في تحفظه على سلوك الكنيسة لا على التعاليم المسيحية ، ليحوّل التحفظ إلى نقـد ، واعتراض ، وتمرد ، ومعارضة ، باسم العلمانية بمعنى علمنة التعليم والمستشفيات ، واستبعاد الكنيسة من ممارسة السلطة السياسية والإدارية . . هذه همومهم . .

ألف عام لديهم أو ما يزيد من عصور وسطية عانى الفكر والعقل فيها من الظلمات آلت إلى طرح العلمانية كبديل ، ولكن بالنسبة لنا ألف عام أو يزيد من عصور الإشراق وحركة الفكر والعقل ، علوماً وفنوناً

وعمراناً من مشارف الصين إلى أعماق أوروبا مارة ببغداد ودمشق والقاهرة وفاس وإشبيلية وقرطبة ، فى ظل الإســلام ، وتفتحه ، وعطائه ، مد الأرض ، وشكل التاريخ ، ووحد اللسان وعبأ الوجدان ، مقومات القومية الحقة التى تتمحور حوله كعقيدة وانتماء وكيان ، وتتحزم بالعروبة إطاراً ولساناً . يقولونها علمانية باسم المحاكاة والتقليد بهدف التعتيم والتغميض، ونقولها إسلامية باسم الالتزام والتاريخ بهدف الإشراق والتأصيل .

لقد غصت ساحتنا الفكرية المعاصرة ببقايا موائد تجارب الغرب (بشقيه الليبرالى والماركسى) لإنقاذنا بالفتات ، وافتعال الاشكاليات ، تاركة جوهر ما حقق الغرب من تقدم علمى مكثف استأنسه تطبيقياً فى تكنولوجيا التصنيع والعمران ، ومنهجياً فى تنوع المعرفة وتخصصها وتخصيصها . واقتتنا هذا الفتات لنضيف إلى همومنا الموضوعية والمزمنة هموم الدخيل ، ثم هموم حلول ما افتعلناه ، فأصبح لدينا اشكاليات أساسية نابعة من واقعنا بفقره ، وجهله ، ومرضه ، واشكاليات مفتعلة دخيلة نتلهى بها وتمتص جانباً كبيراً من قدراتنا جسدياً وفكرياً ، تعلقنا بالفروع والهوامش وتركنا الجذور والأصول ، وغرقنا فى مشاكل حلول المشاكل ، فتعددت الحلول ليصبح الحل هو غيبة الحل ... وتوالت هزائم الإنسان العربى منطلقة من داخل ذاته ، قبل أن تتسع وتتشعب وتتداخل فى هزائم الآخرين له ولأمته ودخلنا فى عصر العتمة والردة ...

وطرح التساؤل العريض كيف وقع هذا ، فكل شىء معطاء فى أمتنا من مبادىء خالدة إلى تاريخ عملاق غنى بالبطولات ، إلى خيرات تتدفق من تحت الأقدام ، إلى شريحة عريضة تشكل الأغلبية من ملايين مؤمنة متطلعة لغد أفضـــل لا تعرف كيف تفتعل الاشكاليات والشعارات والصراعات ، وإنما تعرف كيف تلتزم بالشهادة والجهاد والاستشهاد وتقدم بسخاء كل التضحيات . كل شىء معطاء فى أمتنا لدى هذا العربى المسلم القابع بوجهه السمح المشرق ولكنه ببساطة ما زال فى حجرة

الانتظار ، مترقباً لوثبته ليختزل بهـا زمنه التاريخى المتوعك الدائر والمتراجع ، وليعبر بها كما عبر « بارليف » فى مشرقه ، وكما عبر الصحراء مسترجعاً فى مغربه وبنفس صيحته المدوية « الله أكبر » إلى زمن سابق لزمانه ، مستعيداً لكل ما أخذ منه ، دون أن يفقد ما تبقى له ، هذا العربى المسلم عربى الشهادة والجهاد والاستشهاد الذى دحر منذ عصره الإسلامى الأول وفى الوقت المناسب السواقط ، وهزم الجزئيات النفعية ، والترسيبية فى داخل ذاته ، مستلهماً من الكتاب المنير ، ومستنيراً بالهدى ومتسلحاً بالعلم ، فى مواجهاته ومجادلاته ولا يتبع الشيطان المريد سواء فى داخله أو خارجه ، ولا « **يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه** »(١) ... واعياً بكل هذه المضامين القرآنية الخالدة فى قوله وفعله ... هذا العربى الذى يحمل بوضوح وتواضع ، ونزاهة والتزام ، أمانة أمته الإسلامية : فى عقيدتها ، وانتمائها، ووجدانها وكيانها ، والعربية فى منبعها ، ومحور أرضها ، وحزامها التاريخى ، ولسانها الموحد ، سوف يتجاوز بها لا محالة عصر الردة ، كما تجاوزها على عهد أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) محققاً الانتصار الأول على رواسب ذاته وارتداده إلى شعوبيته ، وحماساته ، وخلفياته ، لينتصر بعد ذلك مهما كانت الظروف ، ومهما بلغت العوائق ، فى كل المعارك وعلى كل الجبهات .

***

---

(١) الحج : ١١

الفصل الثالث

قضية انسان الاسلام
ووسائل الاعلام الأجنبية

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية انسان الاسلام ووسائل الاعلام الأجنبية

قضية جذورها فى الماضى وانعكاساتها تغطى الحاضر والمستقبل. وسنحاول من خلال هذا العرض بعد مدخل موجز عن هذه القضية منذ البداية وحتى العصر الحديث أن نركز على أبعادها المعاصرة المعتمدة على الخلط والتغليط، محللين لطبيعة المواجهة وكيف نتصورها موضوعياً، فى قرن لا يمكن أن يغفل فيه ما » لوسائل الإعلام Mass Media « سمعية كانت أم بصرية أم مكتوبة من تأثير فى تدعيم أو تفنيد للتحديات(١).

القضية منذ البداية :

غنى عن التعريف بل ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن مواجهات الإسلام للتحديات وحملات التشهير عايشته منذ البداية، من مكة مع البصيص الأول للدعوة المحمدية الخالدة إلى المدينة فى مراحل تالية، وقد صور لنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحملات التى واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم بقلب المؤمن الواثق من صدق، وصحة، وصواب رسالته بوحى من ربه، يقرع الأقاويل الكاذبة بالحجج الصادقة، والافتراء الباطل بالبرهان الصائب، يحاور بمنهج القرآن « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** »(٢). تنوعت المواجهات

---

(١) عرض قدم فى الندوة العالمية عن الإسلام والتحديات المعاصرة، يونيو سنة ١٩٧٩

(٢) النحل : ١٢٥

بين قريب حاسد مغرض ، ومنافق مضلل ، ومشرك حقود ، وخصم عنيد ، وعدو شرير ، وكان الرسـول صلى الله عليه وسلم لا يتهيبها ولا يخشاها بل كثيراً ماكان يدعو إليها بتوجيه من ربه ، كقمة للاحتكام والتحكيم ، «**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء**»(١).. وحينما يتوقف عطاء العقل لديهم فى مواجهته ، وتفرغ إنسانيتهم من محتواها ، ويحل العجز أمام نور السماء وإشراق الوحى ، ويتحجر القلب ، وتظلم البصيرة ، ويلجأ المكابرون إلى الدرك الأدنى والأسفل من الحيوانية ، يحركون سيوفهم متسلطين على من جاء مبشراً وهادياً لهم ، يواجههم رسول السماء وخاتم النبيين – بعد تحذيرهم وإنذارهم – فى ساحة الشـرف الإلهى لإعلاء كلمة الله . ويخرج الإسلام منتصراً بسيفه فى النضال كما خرج منتصراً بعقله فى الحوار .

وتمر السنون وتتعاقب الأزمنة التاريخية فى مشرق أمتنا الإسلامية وفى مغربها وأندلسها والإسلام يعرف المواجهات الدموية فى ساحة القتال ، كما يعرف التحديات العقلية وحملات التشويه فى ساحة الفكر ، كل زمن بوسائله وإمكاناته ، بأعدائه وخصومه ، بماكريه ومضلليه ، ودهاته للنيل من أرض الإسلام أو من قدرات إعجازه ، وغاب عنهم أن الله متم لنوره ...

وتدور عليهم الدائرة ، ويخرج الإسلام أكثر ثباتاً فى قلوب رجاله ، وأكثر إصراراً على لقـاء أعدائه ، وأكثر تحدياً لمحاوريه ، وتنقلب محاولات تطويقه إلى فتوحات ، وتتحول ادعاءات عقلنته باسم الإغريق إلى عقلنته هو لفكر الإغريق ونشره تحت رايته ، بعد تقليعه واستئناسه ، فكان مفكرونا هم شراحه وسندته ، ويئس الخصوم والأعداء والأدعياء على حد سواء من مواجهته فى وضوح نهار التاريخ فلجأوا لظلمته بالدس والافتراء ، والحملات المقنعة والمضمرة ، عبر العصور الوسطى بمغالطات من قبل من فى نفوسهم مرض أو أصحاب حوائج يعقوب ...

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

وهكذا شاهدنا فى مختلف هذه الحقب والقرون هؤلاء الذين ــ بعد أن خلا لهم الجو ــ باضوا مكائدهم ومغالطاتهم فى غيبة التاريخ الواعى والرقيب الفكرى ، وأهلوا بذلك لإفرازات عشوائية فى شكل أحكام عفوية على الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، هذه الإفرازات تسلطت بدورها على بعض مفكرى النهضة الأوروبية حتى من لدن المدافعين عن العقلانية نتيجة لاحتكار مصادر المعرفة ومراجعها عن الإسلام فى الغرب وقصرها على كلام أعدائه .

وحتّى العصر الحديث :

حيث يخرج لنا « فولتير » المضَلِّل رغم عقلانيته والمتأثر بمصادر مدسوسة على الإسلام ، بأقاويله ، ويشاركه مفكر آخر لا يقل عنه شهرة وهو من المعارفين (أصحاب دوائر المعارف فى عصر الأنوار) ونعنى به « ديدرو » وغيرهما من الساعين إلى نشر المغالطات والافتراءات عن جهل بالحقيقة ، أو بسوء نية مبيتة . ولقد كان رائعاً حقاً ومشرفاً لنا ، أن يتصدى لهؤلاء المضللين مفكرون آخرون من دعائم عصر النهضة وأركان العقلانية فى الغرب ، ولا تنقصهم الشهرة ولا القدرة ، ليردوا مصححين ومفندين باسم الموضوعية ، ولعل أبرز من نستشهد بهم فى هذا المضمار عمداء المدرسة الوضعية الغنية عن التعريف أمثال « سان سيمون » و «أوجست كونت » . فبينما الأول يقول نصاً : فى كتابه « **علم الإنسان** » وقد ذكرناه فى المجلد الأول من مؤلفنـــا بالفرنسية عن **النظرية العامة لتأسيس السوسيولوجيا والاشتراكية والدولية** ص ٣٠ « إن الدارس لبنيات الحضارات الإنسانية المختلفة لا يمكنه أن يتنكر للدور الحضارى الخلاق الذى لعبه العرب المسلمون فى بناء النهضة العلمية لأوروبا الحديثة » ، يقول «أوجست كونت »رائد المدرسة الوضعية وبصراحة ووضوح فى دفاعه عن الإسلام بشكل محدد راداً على مزاعم « ديدرو » السالف الذكر . ويؤكد فى **محاضراته عن الفلسفة الوضعية** وقد نشرت النصوص الخاصة بالإسلام

على حدة فى بداية هذا القرن بباريس تحت عنوان **الجانب الاجتماعى فى الإسلام** ، وقد استشهدنا أيضاً بذلك فى كتاب آخر لنا بالفرنسية بعنوان **تأملات فى الإسلام** ، عملا بمبدأ (وشهد شاهد من أهلها) ، بل وصدرنا كتابنا هذا بنص « أوجست كونت » المعبر عن رأيه فى الإسلام كخلاصة لمحاضراته . يقول أوجست كونت ويؤكد « أن عبقرية الإسلام وقدرته الروحية لا يتناقضان ألبتة مع العقل كما هو الحال فى الأديان الأخرى بل ولا يتناقضان مع الفلسفة الوضعية نفسها . لأن الإســلام يتمشى أساساً مع واقع الإنسان ، كل إنسان ، بما له من عقيدة مبسطة ، ومن شعائر عملية مفيدة » .

هذه مجرد أمثلة نذكرها برهاناً على أن الإسلام بقدراته الموضوعية دين مواجهة ، دين تحدى لا يحتمى فى مناصر منفعل ، وليس فى حاجة إلى أقاويل ومتاهات بائعى الكلام . لقد استطاع أن يقضى على مكر الماكرين فى مهده ، بفضل أصوات وأقلام علمية نزيهة من قادة الفكر والفلسفة فى أوروبا عبر القرن التاسع عشر فى فرنسا ، وفى ألمانيا ، وفى إنجلترا ... انبرت للدفاع عن الإسلام المفترى عليه باسم نفس العقلانية لا باسم نفعية أو ارتزاق . تبرز ما قدمه للإنسانية منذ إشراقه فى الكون . وعبر مختلف العصور .

ولكن هل توقف موكب المغرضين والمضللين ؟ لقد استغلوا آلام المسلمين ومعاناتهم الحالية ، بعد تسلط الاستعمار عليهم بأمبرياليته المندسة المقنعة ، ليتخذوا من ضعف صنعوه بالمسلمين ، دليلا على ضعف الإسلام ، مستشهدين بذلك على عدم صلاحيته ، ومستغلين بصفة خاصة وسائل إعلامهم لتعويم واقع الإسلام الخالد ، وتصويره وتصوره من خلال واقع المسلمين المعاصر .

موقف وسائل الإعلام الأجنبية والواقع المعاصر للاسلام والمسلمين بين الخلط والتغليط

لقد تكثف موكب العداء والتحدى وتكشف ، بقدر تكثف عطاء أرض المسلمين وانتشار دينهم ، وغزوه للقلوب رغم القهر لدعاته ، وضعف وسائلهم وقلتها ، وركزت خططهم الماكرة على تصيد العثرات ، لا عثرات الإسلام (فليس له ما يؤخذ أو يؤاخذ عليه) ولكن عثرات بعض المسلمين فى سلوكهم ليبرروا ادعاءهم بتأزم الإسلام ، والأزمة أزمتهم (رمتنى بدائها وانسلت) . لقد غاب عنهم أن أسلوب المغالطة والخلط أسلوب مفضوح ، وقد جرب من قبل وتأكد فشله عبر مراحل التاريخ ، فليس للإسلام قضية ولن تكون ، القضية قضيتنا والأزمة أزمتنا نحن ، فهى ليست بأزمة قيم عضوية ومبادىء ، ولكنها أزمة سلوكية وظيفية ، زكاها الاستعمار وركز عليها ، فأبانها لنا وكفانا جهد اكتشافها ، فأبقى لنا الجهد لعلاجها ، بل وبفضل بدائله المطروحة فى ساحة الفكر من تجار الكلام والتمذهب فى أرضنا ، دبر علينا أيضاً جهد استبعاد هذه البدائل ، بعد أن بدأت فى استبعاد بعضها لبعض ...

وهكذا تختزل لنا المراحل بمشيئة الله ، لتعزل أزمة السلوك لبعض المسلمين ولا تصبح أزمة قيم لكل المسلمين . ولكن علينا أن ننتظر من وسائل الإعلام الأجنبية المزيد من تكثيف حملاتها وتكثفها فلن يقدم لنا الخصوم والأعداء عبارات التشجيع والاعتزاز والتبجيل وإنما مواقف الكيد والحقد والتضليل ، ولن يحكموا على الإسلام بمعيار الوضوح ، والصدق والصواب ، وإنما بمعايير الخلط والدس والارتياب ، وهذا ليس بجديد علينا لا يختلف ضجيج اليوم عن الأمس . جربناه فى مكة المكرمة والقافلة من وراء رائدها الخالد نبى البشرية تسير ، وها نحن اليوم نجربه بعد أربعة عشر قرناً ، والقافلة لم ولن تتوقف مهما تعددت الأهوال ، وتنوعت الحواجز ، وتباينت الأقاويل .

لقد كان سلوك المؤمن الملتزم خير رصيد له فى المواجهة وكان إصراره المرتكز على ثقته فى رسالته الخالدة أمضى سلاح يتحصن به ، فينزل الرعب فى قلوب الخصوم والأدعياء والأعداء ومن هنا ننطلق لنتصدى لموقف وسائل الإعلام الأجنبية المغرضة ونحدد طبيعة المواجهة .

وسائل الإعلام الأجنبية وطبيعة المواجهة :

على ضوء التحليل الموجز الذى أوردناه لنصل به إلى الوضعية الحالية كخلاصة ، مركزين على ما للمعرفة التكنولوجية ، والأسس العلمية وتنهيج الاختراع واستئناسه وتبسيطه من دور هام فى تنوع وسائل الإعلام ، وبالتالى تنوع ساحات المواجهة الإعلامية بين سمعية وبصرية ومكتوبة مع عدم إغفال جانب لحساب جانب آخر يتضح لنا الدور الهام للإعلام وضرورة التعرف على وسائله وعلى طبيعة مواجهاتها أولا ، ثم كيفية المواجهة من خلالها بعد ذلك ، وهذا يتطلب استيعاب موضوعى لما يجرى حولنا فى الأمم المتقدمة ذات اليمين أو ذات اليسار ، من تيارات متباينة فى طرقها ومشاربها ، ولكن تكاد تكون متفقة ضمنياً فى هدفها بالنسبة لحصر الإسلام وحصاره . فكما كان الشأن حين ظهور الدعوة الخالدة وتطويقها من الخارج فى محاولة لإيقاف مدها من قبل عمالقة عصرها قياصرة وأباطرة آنذاك وإضعافها من الداخل بالطفيلات والهوامش ، وصمود رسول الأمة صلى الله عليه وسلم برجاله ، صمود الواثق من صحة وسلامة ، وصواب ، ما يدعو إليه وصلاحيته ، نحن اليوم وإن اختلفت الظروف والأزمنة التاريخية على نفس الحال ، فضلا عن تسلحنا بتجربة أمة رائدة رغم معاناتها ونكساتها . وعليه فخير إعلام لدعوتنا هو سلوكنا أولا ، وإصرارنا ثانياً ، المرتكز على ثقتنا فى رسالتنا على أنها رسالة خالدة لخير أمة أخرجت للناس .

وإلا لا فائدة ترجى من إعلام — والحق أحق أن يتبع — تقوم به أو تسانده نماذج غير صالحة هى فى حاجة إلى إعلام ، لأنها غير واثقة فيما لديها ، غير متأكدة من النصر ، تقول ما لا تفعل ، فتضعف الراية

فى يدها أو تستكين ، وإنما نماذج صالحة قولا وفعلا ، لا تكتفى بطرح نفسها كمواجهة بل ترتقى واثقة لتطرح نفسها على مستوى البديل . بديل لعصر الزيف والنفاق الجماعى ، والشهوات واستلاب الإنسان بما صنعت يداه ، علينا أن ندعم النموذج الصالح الذى يتصدى للمواجهة و حمل راية الدفاع عن الدعوة ، نموذج المسلم المستوعب لأصالته ، تاريخياً وقيمياً ، الملتزم بمبادئه سلوكياً ، المتعرف على وسائل الآخرين ومكرهم وأهدافهم ، القادر على الحوار الحق أيضاً دون انفعال أو تشنج ، المرتبط بواقع المسلم ، الفخور به فى معاناته وفى إشراقه ، ورب فئة قليلة من هذا النموذج تمكث فى الأرض أنفع للناس وأخير ، وأفضل من زبد يذهب جفاء ، تحت شعار العفوية العشوائية السطحية التى لا مكان لها فى عصر المكر العلمى والدهاء الممنهج .

تأتى بعد ذلك قضية الوسائل فى حد ذاتها بمعنى إمكاناتنا فى مواجهة إمكاناتهم ، وخير سبيل إلى ذلك هو نقل المواجهة إلى عقر دارهم بخلق قنوات فى صفوفهم ، منهم وإليهم ، فالدول الإسلامية ولله الحمد ، لا ينقص بعضها الإمكانات العادية فهى قادرة على تصيد هذه القنوات القابلة للتعامل مع غيرنا ومعنا حينما ترى فى ذلك فائدة مادية لها . وعلينا أن ندعمها بالوثائق والبراهين ودعوة المفكرين المخلصين ليتحاوروا من خلالها مع الآخرين . وحتى بالنسبة للأبواق المرتزقة التى ترتفع تشهيراً بالإسلام يمكن احتواؤها توطئة لإعادة ترشيدها لتنقلب تشهيراً بمن شهر بنا ، لأن تشهيرها لا يبنى على أساس ، بل هو مبنى على العمالة والكسب لا عن قناعة واقتناع .. والحرب خدعة ...

يبقى فى النهاية واقع مواجهة الخصم الذى لا يتصدى لنا من منطلق الارتزاق وإنما من عداء جذرى ، وخير وسيلة مع هذا تبنى « مبدأ الهجوم كأفضل قدرة للدفاع » ونعنى بذلك فضح دسائسه المبيتة لأمتنا بكل الوسائل

وبدون هوادة ، والإصرار على أن الاسلام كل لا يتجزأ ، وعبور متكامل في حركة التاريخ ، وليس هناك إسلام وإسلام وإنما راية واحدة ، واضحة ، ومتجانسة ، لا بقاء لنا في غيبتها .

ومن ثم هذه الجهود لا يمكن أن تتم في شكل مواقف مفتتة ارتجالية ، وإنما بفضل مخطط مرسوم يغطي مختلف وسائل الاعلام الأجنبية وتعددها فمن ناحية تكثيف الإعلام المكتوب بتزويده بالتأليف الموجز المختصر للغاية ، في عصر السرعة ، وباللغات الأجنبية بتناول القضايا الحية والنشطة والفورية . كما يتناول القضايا الأساسية في الإسلام بأسلوب مبسط للغاية ، ثم تأمين انتشار وتوزيع هذا التأليف على أوسع نطاق في العالم خصوصاً المناطق التي تعنينا في الصدارة ، هذا إلى جانب نشر الأبحاث والتعاليق والمقالات العلمية في المجلات المتخصصة التي تصدر عن مراكز البحث العلمي الشهيرة في العالم. وكذا الصحف الذائعة الصيت..أما الإعلام السمعي والبصري فغني عن التعريف بما له من أهمية بالغة الآن في خلق رأي عام عالمي أو ترشيده أو تطويعه ، ومن ثم علينا أن نشجع التسجيلات باللغات الأجنبية عن الإسلام بما في ذلك الحلقات المتلفزة أو المذاعة والأفلام الوثائقية ، باللغات الأجنبية ليس فقط التاريخية والأثرية ، ولكن أفلام تعالج المبادىء والقيم الإسلامية الخالدة وقضايانا الكبرى : البر ، الإحسان ، الحرية ، المساواة ، العدل ، الإنسانية ، التضحية ، الوفاء .. ولنا في عصور الإسلام المشرقة أمثلة ونماذج خالدة ونحرص على أن تكون هذه التسجيلات عقلانية وموضوعية ومبسطة بعيدة عن الدعاية المفتعلة الرخيصة ، التي لا تمثل سلاحاً للإسلام وإنما سلاح عليه .

وفي النهاية ، موقف وسائل الإعلام الأجنبية من قضية إنسان الإسلام ومواجهته تحتاج منا أولا لنواجهه على مستوى المسلم في حد ذاته لنجعل منه قدوة وصورة صالحة مقنعة ليدافع عنها وذلك بالمواءمة بين القيم

والسلوك ، بين ما نفعل وما نقول ، كما تحتاج بعد ذلك إلى استيعاب شعاره التعمق والعمق ، لا الاكتفاء بتكرار واجترار بعض التعبيرات الإنشائية الحماسية التي لا مكان لها في عصر التهييج الفكري وصرامة الحوار والبرهان.

وتحتاج أيضاً لتصيد قنوات التأثير سمعياً وبصرياً ومكتوبة لتكون ولو نسبياً لنا لا كلياً علينا . وهذه قضية إمكانات مادية وعطاء وهذا متوفر لدى البعض منا إلى جانب نواياه الصادقة لرفعة الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، على أن يكون الهدف في المرحلة الأولى حصر موجات العداء للإسلام لتنحصر في حجمها الحقيقي توطئة لحصارها بما في ذلك موجات المتربصين لتدميره كعقيدة أو الطامعين في أرضه وخيراته .

لننازل الدعي والخصم والعدو بمنهج رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم وصحبه الموحى إليه به من ربه في دستورنا المقدس القرآن «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**»(١)...سواء في ذلك العدة بالعقل والجسد والإصرار على الحق ، والتلاحم والالتحام ، والثقة في نصر الله .

* * *

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

الفصل الرابع

قضية النمو الديموغرافى ومحـــو الأمية

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية النمو الديموغرافي ومحـو الأمية

النمو الديمغرافي مشكلة أم اشكالية :

مشكلة النمو « الديمغرافي » خصوصاً في المجتمعات الفتية أصبحت الآن من المشكلات الأساسية أو الاشكاليات ، أي الصعب من المشكلات التي يستحال إيجاد حلول لها بسهولة . لأن سرعة النمو الديمغرافي ومايترتب عليه لم يعد الآن بالنسبة للعديد من المجتمعات الفتية مشكلة ، وإنما أصبحت اشكالية أي مشكلة صعبة الحل .

هذه المشكلة صعبة الحل ، كان ينظر إليها منذ سنوات على أنها ظرفية بمعنى أن مجرد إعادة النظر في الشرطيات الاجتماعية والبنيات الاقتصادية والإمكانات التربوية وحفز طاقة الإنسان كفيل بإنهائها ، غير أن الآن مع مضاعفة النمو السكاني وتعقد هذه المشكلة وارتباطها بمشكلات أخرى أصبح لها قدرة إعاقة هائلة فتحولت من مجرد مشكلة إلى اشكالية أساسية . والاشكاليات الأساسية المتعارف عليها هي : اشكاليةالأمية واشكاليةالمرض واشكالية الفقر ، وقد أضيف إلى هذه الاشكاليات الثلاثة الاشكاليةالرابعة وهي الاشكالية الديموغرافية (أي النمو السكاني المعيق للتنمية في بعضالدول الفتية) أما من حيث التنظير أو الإطار النظري للمشكلة الديموغرافية فمن المعروف أن هناك اتجاهاً تشاؤمياً وهو السائد ، تتبناه هيئة الأمم المتحدة ويعمل المستشارون والخبراء على تصعيده، ومؤداه أن هذه المشكلة أساسية وخطيرة للغاية ولابد من حلول جذرية لها إما بالحد من الإنجاب أو بتطويع

تشريعي للمشكلة أو بالتنظيم الأسرى حسب ظروف كل مجتمع . . . وهناك الاتجاه المتفائل ، وله أيضاً بعض المتحمسين وإن كانوا أقل من المتشائمين هذا الاتجاه التفاؤلي يرى أن هذهالمشكلة مصطنعة وليست أساسية وأنالقضية لا تخرج عن سوء توزيع سكانى للبشر واقتصادى للثروة وسوء إدارة ، وسوء تنظيم ، وسوء قيادة أيضاً ، فى بعض الدول وبالتالى حينما تحلأو تلغى هذه السوءات لن تصبح المشكلة مطروحة ، لأنه يرى أنالمشكلةالديموغرافية مجرد انعكاس لمشكلات أخرى لو أنها حلت لما كانت هناك مشكلة ديموغرافية أصلا .

الحل التخصيصى :

وهناك اتجاه ثالث وهو اتجاه توفيقى يحاول أن يوفقبين التفاؤلوالتشاؤم **ويرى أن المشكلة من الأفضل أن تطرح فى إطار ما يسمى بخصوصيات كل مجتمع وأن من الخطأ تعميم المشكلة الديموغرافية** ، أى أن هناكمجتمعات : المشكلة فيها تعد سطحية لأن المجتمع غنى بالخيرات ولكنه ضعيف بالتنسيق والتنظيم ، ومجتمعات أخرى المشكلة فيها تعد جذرية وعميقة بل هى مشكلة المشكلات .

وبالنسبة لنا فإن الاتجاه الذى نميل إليه شخصياً هو الاتجاه التخصصى ، لأن من الخطأ تعميم المشكلة الديموغرافية ، بمعنى أننا إذا وجدنا بعض المجتمعات تتطلب الحد نقرر الحد ، وإذا وجدنا بعض المجتمعات قررت التنظيم نقرر التنظيم ، أو نقرر إعادة التوزيع السكانى حسب خصوصيات كل مجتمع ومتطلباته ومعطياته ومن ثم **فنحن من أنصار طرح المشكلة فى إطار كل مجتمع على حدة ولا نعتقد بالتالى فى الحلول السحرية** ، وهذا يدفعنا فى النهاية إلى القول بأن المشكلة الديموغرافية قبل أن ننظرها يجب أن نحدد أى مجتمع تطرح فيه ... ولهذا ندافع دائماً فى المؤتمرات الدولية التى كان لنا شرف المشاركة فيها عن الاتجاه التخصصى ، **كما أننا لا نميل إلى الاتجاه التشاؤمي لأن له خلفيات استعمارية بمعنى محاولة تضخيم وتهويل**

القضية لكى تظل الشعوب الفتية دائماً غارقة فى المشكلات ، كذلك الاتجاه التفاؤلى الذى يقول بأنه لا توجد مشكلة لا نتبناه لأنه مخالف للحقيقة الملموسة فى الحياة اليومية .

تصنيف المجتمعات :

إن المشكلة الديموغرافية تعتبر أخطر المشكلات ولابد أن نتصدى لها ولكن فى إطار الخصوصيات ، **وقضية الخصوصيات هذه تجرنا إلى ضرورة تجزئة المجتمعات الفتية** إلى أربع فئات وتصنيفها على ضوء ذلك .

الفئة الأولى :

مجتمعات تعانى فقط من توزيع السكان ، أى أن لديها الخبرات ولديها الإمكانات ولديها إلى حد ما البشر القادر ولكنها تعانى من سوء توزيع للسكان ، أى أن بها تراكماً سكانياً فى مناطق ضعيفة بالثروات ، وكثافة سكانية ضعيفة فى مناطق غنية بالثروات ، **وهذه الفئة هى التى تحتاج إلى إعادة صياغة البنية الديموغرافية أى إعادة توزيع السكان حسب توزيع الثروات .** فمنطقة ثرية وقادرة على الاستغلال يتجه إليها السكان ، وأخرى فقيرة وقاحلة توضع بعض المخططات التى تجعل السكان يهاجرون عنها .

الفئة الثانية :

وقضيتها ليست سوء توزيع وإنما سوء تنظيم أى أنه ليس هناك تنظيم فى البناء الأسرى والبناء الطبقى لامتصاص الكثافة السكانية فنجد أسراً لديها قلة فى عدد الأفراد على الرغم من أنها تعد من الطبقات الفوقية فى المجتمع وبالتالى فقضية تنظيم الأسرة غير مطروحة لديها نهائياً رغم أنها قادرة على أن تنجب ، وحينما تنجب تستطيع أن تنتج ، وأسراً كثيرة ، أكثر فقراً وأكثر عدداً وتعانى من الكثافة السكانية فهذا سوء توزيع له خلفية أسرية طبقية ، وهنا يكون الحل على مستوى اقتصادى بمعنى أن المشكلة تطرح اقتصادياً ، أى أن الدولة غنية ولكنها تحتاج لا إلى توزيع السكان وإنما

إلى تعادل الثروة عن طريق النظام الضريبي الصارم أو عن طريق الحوافز المتعددة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة وهذه قضية معروفة ، وزميلنا « ألفريد صوفى » له الكثير من الآراء فى هذا الموضوع وهو يعتبر من كبار الباحثين حالياً فى النظرية الديموغرافية وهو يركز على الفئة الثالثة التى سوف نتحدث عنها الآن .

الفئة الثالثة :

وهذه لا تحتاج إلى إعادة توزيع لأنه ليس لديها سوء توزيع فقط ، ولا تحتاج إلى تنظيم لأنه ليس لديها سوء تنظيم فقط وإنما تحتاج إلى تحديد نسل مرحلي ونعنى بذلك أن المجتمع له عطاء غير مستغل فهو غنى بثرواته وإمكاناته وأيضاً غنى ببشره وما لهذا البشر من طاقات فكرية وعضلية ، ولكن جسده غير قادر على استغلال عطائه فتعطى له فترة نسميها بفترة التهوية بمعنى أن يكون هناك حد من النسل لكى تتحرك الطاقات فكرياً وعضلياً ثم بعد هذا يعاد تنظيم الأسرة ، أى أن يكون هناك حد ثم تنظيم ثم حد ثم تنظيم ثم تعادل ديموغرافى وحركة طبيعية وهكذا . . .

تبقى لدينا الفئة الرابعة : وهى مشكلة المشكلات **وفيها تكون الدولة المعنية قد تجاوزت فعلا نطاق الكثافة الديموغرافية ووصلت إلى الاختناق الديموغرافى ثم تجاوزت الاختناق إلى الانفجار : وهى فئة تحتاج إلى** تدخل تطويعى للمشرع ، بمعنى أن القضية تصبح تشريعية إلزامية لأن بنية المجتمع برمتها إن تركت ولم توضع لها حلول جذرية على مستوى التطويع التشريعى والتداخل من جانب الدولة سوف تنفجر نهائياً ، وهنا تأتى أهمية وجود الحلول التشريعية الجذرية الإلزامية سواء بالنسبة **للهجرة أو بالنسبة لتنظيم الأسرة أو بالبحث بتشريعات على تهوية المجتمع والتنفير من المدن الكبرى** بحيث يتدخل المشرع ويجعل هناك شبه استحالة لعملية الهجرة إلى أى مدينة دخلت فى إطار الانفجـــار السكانى عن طريق بعض التشريعات الذكية والدقيقة ، بشرط ألا تخرج عن دستور الدولة لأن هناك

مبادىء أساسية يصعب تجاوزها ، مثل حق المواطن فى حرية التنقل فى أرضه ، لكن المشرع يستطيع أن ينهج فكره وأن يتقدم بتشريعات ضمنية تجعل هذا المواطن فى شبه استحالة لأن ينتقل من منطقة إلى أخرى وذلك عن طريق تشجيعه على بقائه حيث هو وحيث يريد له المشرع ، واستحالة وجوده فى المنطقة الأخرى التى يريد هو أن يهاجر إليها لأنه إذا ذهب فلن يجد فيها أى شىء وهنا سيقارن هو كمواطن بين وضعية ممكنة ووضعية مستحيلة ، وبالقطع سيأخذ الممكنة ويترك المستحيلة . تبقى قضية التوفيق بين صـــالح المجتمع وصالح العقيدة انطلاقاً من أن لـكل مجتمع خصوصياته ، فهناك مثلا مجتمعات علمانية قد تكون قضية التحديد فيها قضية تلقائية ولا تسبب أية مشكلة بينما فى مجتمعات عريقـــة كمجتمعاتنا التى تعتز بتقاليدها الروحية وقيمها الخالدة ، **لابد أن يوضع فى الحسبان مدى التوافق بين صالح المجتمع وصالح العقيدة والتقاليد والمعتقدات المقدسة** ، وفى تصورنا يمكن للمشرع أو لفقهاء الدين أن يتقدموا باجتهادات صادقة وملتزمة بالنص – لأنه لا اجتهاد على حساب النص – تحاول أن تجيب على التساؤل التالى : كيف يمكن للمجتمع أن يرتقى دون أن يتنكر لقيمه الدينية الخالدة ؟ لأن هذا المواطن الذى نطلب منه أن يقوم بعملية تحديد النسل حينما يشعر فى أعماقه أنه ارتكب خطيئة وأنه تنكر لعقيدته قد لا يستجيب على الإطلاق لأن هذه الأمور من الصعب طرحها فى جملة من مبتدأ وخبر وإنما تحتاج إلى شروح ودراسات لإيضاح كيفية التوفيق بين تنظيم النسل وبين صالح المجتمعات ذات القيم الروحية الخالدة ، لأن الذى يعنينا هو كيف يمكن للأسرة المعتزة بقيمها الروحية وبتقاليدها ، والمتطلعة إلى مستوى اقتصادى راق ومتقدم ، والطموحة إلى كل ما تعطيه الحضارة من فرص الرفاهية والرخاء كيف يمكن لهذه الأسرة أن ترضى الوجدان الروحى الخالد وفى نفس الوقت تشبع رغباتها بطريقة مشروعة عن طريق إنجاب أطفال تضمن لهم فى المستقبل الحياة الكريمة وتقيهم شر الحاجة والمعاناة .

تدخل المشرع والحلول الجذرية :

أما بالنسبة لتدخل المشرع والحلول الجذرية على مستواه فإننا لا نقصد أن يتدخل المشرع ، بشكل قاس وصارم قد يكون ضرره أكثر من نفعه ، وإنما نعنى أن يتدخل المشرع بشكل ذكى ومدروس وهذا ما حدث لبعض المناطق الجبلية فى أوروبا فهناك مناطق جبلية يسكنها أناس يسمون الجبليون أى سكان الجبال ، وقد رفض هؤلاء أن ينزلوا من أعالى الجبال إلى مناطق العمران فى السهول والوديان كطلب دولهم حتى تتمكن من تقديم خدماتها إليهم شأن بقية المواطنين ، حيث كان من الصعب عليها أن تقيم المدارس والمستشفيات وغير ذلك من الخدمات لكل تجمع أسرى لا يتعدى العشرة أو العشرين أسرة وإلا أفلست الدولة مهما كانت قدرتها ، فكان هناك تفكير ذكى فى كيفية جعل حياة هؤلاء مستحيلة فوق الجبال وميسرة فى أسفلها عن طريق تشريعات ذكية بعضها خاص بنزع ملكية بعض الأراضى فى مقابل تعويضات مجزية وبعضها خاص بإعطاء أولويات للمشروعات العمرانية فى المناطق غير الجبلية وإهمال تلك المناطق الجبلية حتى يكون سكانها لا كمن نسوا الله فأنساهم أنفسهم وإنما لكى يشعروا أن طلباتهم ميؤوس منها ، فمثلا حينما يطلبون مصعداً كهربائياً ليصعدوا به الجبل يقال لهم إن طلبهم قيد البحث والدراسة مع استمرار عملية الانتظار هذه حتى يملوا الطلب مع مرور الزمن وفى نفس الوقت يجدون حياة الآخرين سهلة ورائعة أسفل الجبل فى الوادى ، ولأن الإنسان يبحث دائماً عن مصلحته ومنفعته فإن نتيجة ذلك أن الجيل الصارم يبقى فوق الجبل حتى يغادر الحياة بينما جيل الشباب الواعى لا يرضى بهذا وإنما يهبط من فوق الجبل ليعيش الحياة الميسرة .

وربما نقول ليس لدينا جبليون ولكن لدينا أموراً أخرى شبيهة ومن ثم يكون على المشرع أن يأتى بأمور أخرى شبيهة قياساً على ذلك **لأن من ميزات التشريع اختصار الأزمنة التاريخية واختزالها .**

وما دمنا قد قلنا بأن عملية تحديد النسل قد لا تناسب طبيعة مجتمعنا الملتزمة بقيمها الروحية **فعلينا أن نبحث عن طريقة أخرى غير التحديد ولتكن التنظيم الانضباطي** . أى أن يكون هناك نوع من الانضباط فى تنظيم الإنجاب ولا يكتفى بأن تكون المسألة مقصورة على المواعظ والإرشادات ، لأنه قد لوحظ من الزاوية« السوسيولوجية»—أى زاوية التحليل الاجتماعى— علمياً أنه بقدر ما يلفت النظر إلى بعض القضايا بقدر ما يحبب فيها ، ولهذا يقولون كل محرم محبب ، ومن هنا لابد أن يكون هناك تفكير فى مخطط لتنظيم انضباطى يطرح فى خلال عامين أو ثلاثة لفئات محددة أو مناطق محددة من المجتمع ، **لأن هذا النوع من التنظيم من الخطأ أن يعمم طرحه على مستوى الدولة مرة واحدة وإنما يطرح فى المناطق التى تعانى فعلا من الاختناق وفى طريقها إلى الانفجار** . وهنا تأتى أهمية المسح الاجتماعى ودراسة الحالة فى عين المكان ومحاولة التكيف مع بيئة الاختناق* الديموغرافى . وقد لوحظ فى قضية التنظيم الانضباطى أهمية الأرض ، لأنه لا يمكن لساكن أن يتحرك فى غيبة الأرض ، ففى باريس مثلا وجدوا أن بعض مناطق الضواحى يتجه إليها ضعاف الدخل من السكان لأن الأرض رخيصة نسبياً فبدأ كل من لا يجد عملا فى باريس يذهب إلى هذه الضواحى حتى تحولت هذه إلى مناطق انحراف أو ما نسميه بالمناطق الملوثة أو الموبوءة ، وهنا تدخل المشرع ليقدم تنظيما انضباطياً للمنطقة عن طريق حصر ثم حصار المنطقة بشكل يستحيل على الإنسان معه أن يمد قدمه أكثر مما هى عليه ، وذلك عن طريق نزع ملكية جميع الأراضى المحيطة بهؤلاء السكان وإدخالها فى مشروعات أخرى لامتصاص النمو السكانى فحولوها إلى حدائق وغابات ، وهذه بالطبع لا يسكنها أحد، أما إذا أقيم عليها مصنع فإن الأمر يتحول إلى مصدر للكثافة السكانية أى أن الدولة حدت من كل ما يدفع على الهجرة إلى هذه الضواحى الهامشية وساعدت على كل ما ينفر من الإقامة فيها ، ولا يخفى علينا ما يترتب على ذلك من تهوية للسكان وتهوية للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والقضاء

على التلوث فى كل أشكاله . **ولقد آن الأوان لتطرح قضية المدن الكبرى لدينا في شكل تنظيم انضباطى لصالح وخير المجتمع .**

عقلية التخلف والمضاربات الكونية :

كذلك لا يمكن إغفال عقلية التخلف وانعكاسات الأمية وما بجانبهما من غيبة فى الوعى والتعبئة تؤدى إلى تدعيم وتأصيل الاشكالية الديمغرافية ، ولذا فنحن فى أشـــد وأمس الحاجة لمواجهة الأمية كأساس لكثير من المعيقات أمام بناء الإنسان . لأن **الإنسان الأمى غائب عن المجتمع وهو فى معظم الحالات قدرة استهلاكية لا أكثر ولا أقل فهو يعرف كيف يأخذ ولا يعرف كيف يعطى ، ولهذا لا نعتقد فى أسطورة التخلف الاقتصادى فهذه مقولات واشكاليات غذتها بعض الدول الكبرى لحاجة فى نفس يعقوب .** فالتخلف فى تصورنا أساسه **عقلية تخلف** أى عدم قدرة الإنسان على استغلال طاقاته وإمكاناته البشرية والطبيعية : وحينما نرد عقلية التخلف إلى سوء التنشئة الاجتماعية تبرز الأمية كمنطلق لعمليـــة التخلف . **إذن حينما نقوم بعملية استئصال للأمية فإننا نكون قد وضعنا المجتمع على طريق العقلية الواعية ووضعنا حداً لخرافة التخلف الاقتصادى .** فهم يريدون لنا التقدم فى التأخر لأن قضية التخلف كما هى مطروحة حالياً من الدول المتقدمة إنما هى قضية أسطورية ماكرة وخادعة ولا نعتقد بالتالى فى جدية الأطروحات المبيتة **والتنظير المقدم لنا من الدول المتقدمة لأن هذه الدول لا تريد لنا أن نتقدم فى التقدم وإنما أن نتقدم فى التخلف وهذه حقيقة لابد أن نعيها جيداً ،** فبالنسبة لهم المشكلة الكبرى التى يعانون منها أشد المعاناة الآن تنحصر من ناحية فى كيفية المحافظة على التقدم والإبقاء عليه خاصة أمام مجتمعات فتية فائرة وثائرة ، ومن ناحية أخرى كيفية تنقية هذا التقدم والارتقاء به وكيفية جعل الآخرين يتأصلون فى التخلف ـ إذا صح هذا التعبير ـ وهذه مشكلة ديالكتيكية تخضع لتنهيج جدلى وتحتاج لعقول واعية

وقادرة فى العالم الثالث تستطيع أن تواجه العقول القادرة فى المجتمعات المتقدمة التى وضعت سياجاً من التفكير المتسلط الذى جعل العالم إما سيداً أو مسوداً فقط ولا وسط بينهما .

فنى الوقت الذى نسمع فيه عن مجاعات فى بعض الدول نسمع أيضاً عن دول كبرى ترمى بفائض الطعام أو المحاصيل فى مياه المحيطات حتى تحافظ على سعر السلعة عالياً ، وهذا بالطبع يتنافى مع المثالية أو الإنسانية التى يجب أن يتحلى بها العالم المتقدم أو التى يزعم أنه يحرص عليها ، أليس كذلك ؟ إننا نعيش فى عصر المضاربات السوقية والطبقية الكونية أى أنه ليس هناك طبقية فى المجتمع فحسب وإنما هناك طبقية فى الكون ، **فهناك الطبقات الكونية المعززة وهناك الطبقات الكونية الكادحة طبقات المستضعفين . والذى يستطيع أن يتجاوز الوضع الطبقى الحالى ويستغله لصالحه هو القادر فكرياً** ، لأنه هو المستفيد من هذه الطبقية الكونية ، ومن ثم فلم تعد هناك قوة تقهر الآن إلا قوة الفكر ولم تعد هناك قيمة للكثافة فى الكم البشرى بما له من طاقة عضلية ، فالأقدر على التفكير واستطلاع ما يدور فى ذهن خصمه والأكثر حذراً هو المنتصر ، على عكس ما كان سارياً فى العصور الماضية ، حينما كان الأكثر فروسية هو المنتصر ، فالأكثر قدرة على التفكير الآن يستطيع أن يلاحظ ويجرب ويقارن وفى النهاية يعطى النتائج التى لا تقبل الانهزام أن نهاية هذا القرن سوف تشهد تجاوزاً لمقولة الكتلة الشرقية والكتلة الغربية **لأن الدول المتقدمة الآن** – إلى حد ما – **إن لم تلتق فى وسائلها فقد التقت فى أهدافها وهى إعاقة الدول المتخلفة** ، **أما الوسيلة** إلى ذلك فربما تختلف من دولة لأخرى . **فعلى الدول الفتية الآن أن تكثف قدرتها الفكرية وعطاءها العلمى وتكثف** الوعى والتعبئة الذهنية لاكتشاف الحلول الجذرية أو على الأقل اكتشاف ما يحول

بذهن الخصم من مخططات علمية يضعها لإعاقته ليس فى فترة خمسة أو ستة أعوام وإنما خلال نصف قرن .

والخلاصة: علينا أن نعطى أولوية مطلقة للاهتمام بعقلية التخلف ،وغيبة الوعى والتعبئة سواء بالنسبة للنمو الديموغرافى البناء ومواجهة الأمية بحلول موضوعية مبسطة تتمشى ومعطيات مجتمعات الإسلامية العربية وهذا ماسوف نتعرض له فى الصفحات التالية .



الفصل الخامس

رأى فى اشكالية الأمية
ودور الكتاتيب القرآنية فى محوها

- نظرة موجزة فى العوامل المزكية للأمية حاليـا
- دور الكتاتيب القرآنيـــة فى محـــو الأميـــة وشروط انجاحه

بسم الله الرحمن الرحيم

رأى فى اشكالية الأمية

ودور الكتاتيب القرآنية فى محوها

تمهيـــد :

من واقع الإحصاءات الأخيرة في الوطن العربى نلاحظ ـ رغم المجهودات الطيبة والجادة التى بذلت وخففت من حدة الإشكالية فى الوحدات الحضرية بفضل تمدرس الأطفال ، والاهتمام بتعليم الكبار ـ أن الأمية ما زالت تغطى الكثير من البوادى قرى وأريافاً وبنسبة عالية ملفتة للنظر ، وتشكل عائقاً أساسياً من عوائق التنمية ، بل الأمية تنعكس آثارها فى الواقع على بنيات المجتمع سياسياً ، وخلقياً ، وصحياً ، فضلا على انعكاسها على أوضاعه الاقتصادية بصورة جذرية ، وسوف نحاول فى هذا العرض الموجز إبداء رأينا فى هذه الإشكالية وذلك بطرحها موضوعياً وتحديد العوامل المزكية لاستمرارها ، ثم إبراز الدور الذى يمكن للكتاتيب القرآنية أن تلعبه فى محوها عبر البوادى أريافاً وقرى باعتبار أن البوادى تجسد غالبية المجتمع لا كماً فقط ، ولكن بالنسبة لانتشار الأمية فيها ، فهى بالتالى المحور الأساسى فى كل مخطط هادف ينطلق من الواقع كما هو لا كما يجب أن يكون .

طرح إشكالية الأمية

من الخطأ ربط اشكالية الأمية بالبنية العضوية لأمتنا العربية الإسلامية تاريخياً ، فالأمية ظاهرة عرضية فرضتها علينا ظروف وأزمات مختلفة تصدر الاستعمار فى تركيبها ، وذلك بوضعه صراحة أو ضمناً سياجاً عازلا بين التعليم والجماهير ، لتأكده من استحالة قهر الجماهير الواعية المعبأة واستغلالها ،

ولعل التاريخ فى حد ذاته يكذب ادعاء استيطان الأمية لدينا ، فمنذ شروق الإسلام وعبر فتراته المجيدة المختلفة فى المشرق ومراميه حتى الصين وفى المغرب وأندلسه وعمقه الإفريقى . نلاحظ أن الإنسان العربى البسيط يمسك باللوح والقلم ليحفظ القرآن ويخرج لنا الفقيه والمحدث ، والأديب الشاعر والكاتب ، والفنان ، والفيلسوف والمؤرخ والفلكى والجغرافى ... ولم تك أمتنا عبر عصورها المختلفة حتى العصر الحديث نخبوية على مستوى القلة ولكن على مستوى الجماهير : جماهير المؤمنين .. والآثار المنتشرة فى كل مكان على ظهر الأرض التى مرت فوقها الأقدام الإسلامية تشهد على أننا لم نك أمة أمية بمفهوم الجهل .

والمؤلفات والمخطوطات التى تزخر بها مكتبات العالم دليل ملموس فى حد ذاته يفند هذا الادعاء بالأمية . فالأمية كما أشرنا سلفاً ظاهرة عرضية اتسع شأنها باتساع شأن الاستعمار وتسلطه علينا ، وتمكنه من مصير شعوبنا ، لحصر خطواتها وإضعاف قوتها الدافعة ، واكتفى الاستعمار بحصر المعرفة على خدامه وعملائه ، ومحققى مخططاته ؛ ومع هذا شكل بصيص النور الباقى من أجيال الكتاتيب القرآنية أرضية صلبة فى المشرق والمغرب استحال على الاستعمار تدميرها ، فأهلت بفقهائها قادة للمستقبل كانوا على رأس الحركات الوطنية فى مختلف الأقطار العربية .

ومن هذا المنطلق فى طرح الاشكالية يمكننا بعد تحديد العوامل المزكية للأمية أن نبرز الدور الذى يمكن لنفس هذه الكتاتيب أن تلعبه حالياً بعد تكيفها لما فيه مضاعفة لنشاطها وفاعليتها للمساهمة فى محو الأمية بعد أن ساهمت فى محو الاستعمار .

***

نظـرة موجزة

فى

العوامل المزكية للأمية حاليا

دون التعرض تفصيلا لهذه العوامل نركز على العامل الرئيسي الذي يساهم فى تزكية عوامل ثانوية لولا وجوده ما وجدت : ونعنى به النمو الديمغرافى العالى والمكثف فى الطبقات الأكثر فقراً والأكثر عدداً بالبوادى أريافاً وقرى نمو لا يتمشى مع الدخل سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع ككل ولقد أضعف من صرامة مواجهة هذا العامل الالتجاء إلى طرق ومناهج فى محو الأمية صحيحة وسليمة من حيث التنظير وكذا أحدث وسائل التقنية ، ولكن من حيث صلاحيتها لأرضية الأمية وتكيفها معها ينقصها تعبئة الوجدان الذى لا يمكن أن يستبدل كقوة هائلة تلقائية لدى الجماهير المؤمنة ، ومن ثم يمكن لوسائل محدودة إذا ما انطلقت من التعبئة الوجدانية والتوعية أن تأتى بنتائج تجب أحدث ما وصلت إليه التقنيات (مثال الصين) .

ولماذا نذهب بعيداً لنعطى الصين كمثال ؟ واقعنا فى حد ذاته أكد لنا مراراً أنه إذا عبئ وجدانياً بعقيدته المؤمنة يصنع المعجزات مهما عزته السبل والأمثلة كثيرة فى تاريخنا المعاصر . كذلك الأمثلة كثيرة بالنسبة للمواجهات التى خضناها ونخوضها بوسائل لا بأس بها ولكن خسرناها لغيبة التعبئة الوجدانية .

ومما لا شك أن المؤسسات المتخصصة فى محو الأمية ساعدت كثيراً فى تلخيص المراحل وتسهيل قطعها ولكن لابد من الوجدان الواعى المعبيء المخاطب بلغته الأصيلة الكائنة فى عمقه لا لغة التقنيات والطرق الحديثة

فقط ، و بالتالى محو الأمية كاشكالية علاجها ينطلق من أرضيتها وعلى ضوءها تكييف الوسائل . ومع هذا لا يمكن بحال إنكار المجهودات البناءة التى بذلتها المؤسسات العربية المتخصصة رغم العوائق التى تواجهها من حيث الإمكانات والتعاون والتنسيق والتشجيع وتبنى آراء « أهل الذكر » من المتخصصين فى هذه القضايا والإسراع فى التنفيذ لأننا نعيش فى مواجهة دائمة مع النمو الديمغرافى كأهم عامل مزكى للاشكالية كما أسلفنا الذكر .

وتدعيما لهذه المجهودات وعلى هدى ما أشرنا إليه يمكننا أن نطرح من خلال هذا الرأى حل علمى يتمشى مع الواقع الملموس خصوصاً فى البوادى ونعنى به الكتاتيب القرآنية ، وتأهيلها لتلعب دورا يرتكز أساساً على عطاء الوجدان الروحى المعبأ الموعى . فإن كان القرآن وما حوله من سنة خالدة لرسولنا الأكرم (عليه السلام) أعطى لهذه الأمة جوهر نهضتها بعد بناءها ، وشكل القاسم المشترك لكل أنواع المعرفة حفظاً ، أو شرحاً ، أو تفسيراً ، رابطاً لكل المعارف الإنسانية بهدف وغاية سامية تسير على هديه ، هواليوم (ونعنى القرآن) قادر — بما له من عمق فى وجدان الجماهير وما يتمتع به من قداسة ، تذكر آياته فى معالم طريق الحياة الرئيسية ، حين المولد ، والزواج والمرض والوفاة ، لدى الجماهير التى بفضل عطاءه تستعيد الثقة فى ذاتها رغم معاناتها — على أن يسهم بكتاتيبه فى محو الأمية ، ويخفف من حدتها لدى عامة الشعب أما دور هذه الكتاتيب فنحدده باختصار فيما يلى .

***

دور الكتاتيب القرآنية

فى

محو الأمية وشروط انجاحه

كى ينجح هذا الدور لابد من شروط نجملها فى ثلاثة :

الشرط الأول :

إعلامى عن طريق أئمة المساجد والفقهاء فى القرى وذلك بصياغة خطب الجمعة فى إطار إعلامى من آن لآخر والاستشهاد بالآيات والأحاديث والسلوك النبوى فى الحث على التعلم والعلم . وربط ذلك برضى الله والنعيم فى الدنيا والآخرة ، وما أكثر الآيات البينات والأحاديث الشريفة التى تؤيد ذلك . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى استغلال أجهزة « الماس ميديا » أى وسائل التوصيل الإعلامى سمعية ، أساساً ، ومكتوبة وبصرية ، فى تعبئة وجـــدان الجماهير بأوقات مخصصة يومياً فى برامج الراديو لمحو الأمية ، وليس الهدف من ذلك خلق حملة إعلامية من آن لآخر ينتهى أثرها بانتهاءها وإنما خلق عمل مستمر فى إطار خطة تجدد وتتكيف مع ما أعطت من نتائج

الشرط الثانى :

تربوى تبسيطى ينطلق من الأرضية لا من الوثائق بمعنى وضع مخطط تربوى مبسط بعد دراسة ميدانية على الطبيعة للقرى لنحدد فاعلية الكتاتيب فى مختلف المناطق ، بين مناطق ما زالت ملتزمة بها ، ومناطق تبنت البديل ، ومناطق بين بين ، فتعاد بعد ذلك فى كل المناطق وتربط بالمدارس الإلزامية فى الإطار التربوى العام . وتشجع وتشمل على تحفيظ القرآن للصغار والكبار على حد سواء ومن خلال التحفيظ تتم عملية محو الأمية عند المواطن بتعليمه

أسس القرآن ، والكتابة من خلال القرآن ،وما أمكن يعطى لفقهاءالكتاتيب إطار بنيوى منظم ومدعم ، ولكن مبسط لا معقد ، وإعطاء الوسائل مثل اللوح والطباشير والمساعدات المالية الرمزية ، ويتبع درس التحفيظ والقراءة والكتابة إعطاء المواعظ من القرآن والحديث والسنة المدعمة للخلفيات والمعنويات والسلوك الاجتماعى المؤصل لروح الجماعة وبقاء الأمة فنكون قد حققنا هدفين بمجهود واحد: التخفيف من الأمية، والتدعيم للقيم الروحية والمعنوية والخلقية والوطنية ،مما يزيد من الارتباط بالعقيدة والأرض والوطن والذات لدى المواطن الصغير والكبير على حد سواء . ولا بأس من أن يصبح المرور بالكتاتيب شرطاً للتزكية فى العمل أو الولوج إلى المدارس الإلزامية .

وحينما تطرح قضية تدعيم المواطن بالقيم نضع فى حسباننا ما سوف يواجه من تفاعل حضارى من خلال ضروب الاحتكاك والمثاقفة فنعطى له إطاراً للإحالة يحصنه ضد الانحراف والاهتزاز والرفض والتنكر لدينه ووطنه وأسرته ومجتمعه فى المستقبل كما يلاحظ حالياً لدى البعض .

أما بالنسبة للفئات العربية التى لا تدين بالإسلام فيمكن لنفس التجربة أن تتم من خلال كتابهم المقدس ، مع إبراز روح التكامل مع الثقافة الإسلامية العربية لا كعقيدة إيمانية ولكن كانتماء حضارى. فالأديان السماوية هدفها واحد على الأرض يعنى رفعة الإنسان والتسامى به .

الشرط الثالث :

تنظيمى ، وذلك بخلق تنظيم فى داخل جهاز محو الأمية يضع الخطوط الرئيسية لهذا الرأى بعد دراسة ميدانية نوعية كما أشرنا من خلال عينات تؤخذ من مختلف بوادى وأرياف وقرى الأقطار العربية حيث إننا نسلم أساساً كباحث اجتماعى بالشرطية البيئية فى كل مخطط كى ينجح فى تكيفه وتكييفه ، ولا نقول بالعامل الواحد المهيىء فى كل الأمكنة والأزمنة وإنما بتعدد العوامل وتباينها ، وبالتالى لإنجاح مشروع ما لابد من مرونته وتبسيطه وتقبله لتعدد

العوامل والشرطية البيئية ليتجاوب فى كل أرضية حسب العوامل التى تتحكم فيها ، وهذا التنظيم ما أمكن يستفيد بعناصر شابة قادرة على أن تعيش فى البوادى لا أن تتعايش فى المكاتب .

وكخلاصة : هدفنا من إبداء هذا الرأى هو الإسهام فى حل اشكالية أساسية فى وطننا العربى تتكثف وتتعقد زمنياً مع النمو الديمغرافى للطبقات الكادحة الأكثر عدداً وفقراً ، حل ينطلق من أرضيتنا العربية ويتمشى مع وجدانها ، ويتفاعل مع واقعها كما هو لا كما يجب أن يكون ، فمحو الأمية رغم الأسس النظرية السليمة والصحيحة التى وضعت له علمياً ، نجاحه وفشله لا يتوقف على هذه السلامة وهذه الصحة النظرية بقدر ما يتوقف على ملاءمة فاعليته وصلاحيته للواقع ، فلا يمكن أن ينكر على الوطن العربى ذاتيته المميزة تراثياً : وعوامله المهيئة بيئياً ، وقدرته الوجدانية فهو إذا ماعبىء ووعى قادر على التجاوز واجتياز العوائق ،وهذه سمة من سماته التى أكدتها مسيرته التاريخية ارتبط عطاءه بعطائها .

ولا شك أن تجربة من هذا النوع ترتكز على عطاء وجدانه لا تحتاج لكثير من الرصد والرصيد المالى والبشرى فالكتاتيب القرآنية أغلبها موجود وفقهاء القرية أيضاً ، وما علينا إلا أن نضيف إلى هذا الجهاز المنطلق من الأرض العربية مايجعله أكثر فاعلية وصلاحية بتطعيمه بالوسائل والإمكانات ، ثم المراهنة عليه بعد ذلك كعامل أساسى فى محو الأمية لدى جماهير البوادى فى أمتنا العربية : قرى ، وأريافاً ، فهم الأرضية إن لم يك هم الغالبية .

***

الفصل السادس

مع رواد الفكر العالمى
المادى والروحى
وتأملات فى مصير الانسان
« بوخارين : المفكر المادى ومأساة الانسان »



بسم الله الرحمن الرحيم

مع رواد الفكر العالمى

المادى والروحى

وتأملات فى مصير الانسان

« بوخارين : المفكر المادى ، ومأساة الانسان »

(N. I. BOUKHARINE)

واستيقظت مدينة موسكو حزينة صبيحة الثالث عشر من مارس سنة ١٩٣٧ لتشهد محاكمة المفكر الإنسان ، رائد الثورة المفترى عليه ، « نيكولاى إيفانوفتش بوخارين » مع عشرين مناضلا آخرين . وكان الاتهام بالخيانه العظمى ، ووقف بوخارين عشية اليوم الأخير من محاكمته ليقول بصوت هادىء « ليكن إنى مذنب ولكن فى حق من ؟ » نافياً للتهم الأخرى الملفقة والموجهة إليه : كالتخريب ، والقتل ، والتجسس ، والخيانة ، وقرر بصوت كله إصرار وبكل موضوعية « أنه فعلا قام بنشاط معارض لثورة ستالين » وحينما بلغ « ستالين » ما جرى فى المحاكمة قال : إن أقر بأنه « داعر » فسوف ننظر فى شأن تخفيف الحكم عنه ، ولما طلب من« بوخارين»الرد . أجاب ليكن وليقل الرفيق ستالين أنى داعر. فأجاب ستالين من حملوا إليه الخبر ، وما جزاء من اعترف « بدعارته » إن الجزاء هو الإعدام ، ونفذ الحكم وفصلت رأس «بوخارين» عن جسده ، رأس من وصفه « لينين »بعد قيام ثورة أكتوبر ، أنه الرأس المفكر للثورة والحزب وطفلهما المدلل ، والخليفة المأمول لتولى القيادة بعد وفاته .

ومرت السنون وهبت رياح التنكر على« ستالين »بدوره ووقع ما وقع لجثته بعد وفاته كما هو معروف ، وجسدت فيه أخطاء جسدها من قبل فى «بوخارين» ، واستمر مسلسل الجحود وكأنه جزء لا يتجزأ من المادية وجدليتها وحتميتها التاريخية وجوهر فكرها الذى كثيراً ما يقود فى النهاية إلى التنكر للذات ، وتدميرها ، ولعل خير مثال مأساوى إنسانى يذكر هو ما حدث لعائلة « كارل ماركس »نفسه ، فقد انتحرت ابنته المفضلة الجميلة « ألينور » بسم الكلاب سنة ١٨٩٨ وتبعتها فى الانتحار الابنة الأخيرة له « لورا » مع زوجها « لافارج » وقد انتحرا فى ليلة عيد معاً سنة ١٩١١ . هذه المادية التى يعتبر «بوخارين » فى الفترة المعاصرة دون نزاع أحد روادها ، وأقسى نموذج لضحاياها ، وهو الذى يعنينا فى هذه التأملات فى مصير الإنسان من خلال نشأة هذا المفكر ونضاله وأفكاره وخصوصاً نهايته كأدق مثال لأزمة عضوية يعانى منها الفكر المادى كمسلسل لحتمية القطيعة والجحود فى كيان الإنسان حينما يتنازل عن إنسانيته الحقة السامية ، لحساب إنسانية متصورة مغشوشة ومصطنعة تغطى تسلط الغرائز بدلا من السمو بها وتجاوز حيوانيتها بمعنويات وأخلاقيات مبدئية ، تحتكم قانعة فى النهاية وفى قمة صفائها لمبدع الوجود ، وخالق الكون ، رمز الكمال والرحمة والخلود ، ولنعد لبوخارين باختصار (ولمن يريد التفصيل أن يراجع دراساتنا بالفرنسية على سبيل المثال ودراسات **Knirsh** القيمة بالألمانية ، وأيضاً دراسة **Broué** بالفرنسية . . .)

ولد بوخارين عام ١٨٨٨ فى أسرة تعليم فوالده معلم أوصله بجهده إلى المرحلة الجامعية ، وكان منذ فتوته وشبابه فى مراحله الأولى يتمتع بحيوية ورغبة فى التغير ، نراه بين جماهير المضربين ولم يتجاوز السابعة عشر من عمره (إضرابات سنه ١٩٠٥ — ١٩٠٦ الشهيرة) ثم مناضلا فى صفوف الحزب البولشفى ، وعرف الاعتقال والإبعاد والهروب إلى ألمانيا ، وفى بولونيا حيث كان اللقاء الذى غير مجرى حياته ولعب دوراً رئيسياً فى سير الأحداث بالنسبة له ولمصيره . إنه اللقاء مع « لينين » الذى أعجب به ، طلب منه أن يكتب

مناضلا بقلمه فى الصحف بعد أن اكتشف القدرة الخلاقة لديه . وتوالت مواسم الهجرة إلى النمسا ، ومنها إلى سويسرا ، والسويد والنرويج والدنمارك ثم نيويورك . ولقد ربطته علاقات قوية فى هذه الفترة مع « تروتسكى » (صريع آخر أيضاً لمسلسل القطيعة والجحود بين الرفاق فى الفكر المادى) ، وأصدر فى نفس هذه الفترة كذلك ، جريدة « نوفى مير » وحين وقوع أحداث فبراير سنة ١٩١٧ عاد إلى روسيا عن طريق اليابان لتشهد دفاعه الفريد عن « أطروحات إبريل » ضد « كاميريف » و « ستالين » . وانتخب عضواً فى « اللجنة التنفيذية للسوفييت الأعلى » ومنذ ديسمبر سنة ١٩١٧ أصبح رئيساً لتحرير لسان روسيا الثورة « البرافدا » وبقى يوجه روسيا من معقله كرئيس لتحرير هذه الجريدة عشرة أعوام . ولعل أبرز ما يذكر له خلال هذه المرحلة موقفه المعارض للمفاوضات مع ألمانيا ضد معاهدة « برست ليتوفسك » ومكانته القيادية إلى جانب « لينين » فى الحزب والثورة بل اعتبر الطفل المدلل لهما حسب تعبير « لينين » نفسه كما أسلفنا الذكر واختير مع « بربرا جنسكى » لتحرير المحاضرات الشيوعية الشهيرة المجسدة للمبادىء الأساسية فى الماركسية والتى فى حد ذاتها تعتبر بمثابة أول تحفظ موضوعى على النظرية الماركسية باسم الممارسة والتطبيق ، وفى سنة ١٩٢٠ نشر « بوخارين » مؤلفه (**اقتصاد الفترة الانتقالية**) شارحاً فيه (شيوعية الحرب) محاولا تبرير دكتاتورية البروليتاريا لتسمح باستمرارية الثورة ومشروعيتها ، وتكثف الصراع الطبقى . وفى نفس السنة — سنة ١٩٢٠ — طرح موضوع **مستقبل النقابية** معلناً مع « تروتسكى » تفضيل مبدأ (دولنة النقابات) بمعنى إخضاعها للدولة . وفى عام ١٩٢١ نشر **نظرية المادية التاريخية** . وتعتبر دراسة سوسيولوجية مبسطة للماركسية ، جاءت كنتيجة لمناقشاته مع الطلاب فى جامعة « Sverdlovsk » ولقد برزت القدرة الفكريه لبوخارين حينما لم يتردد فى إبداء دهشته أمام تقوقع الماركسية وسلوكها السكونى ، وأنها تدور حول نفسها وفى نفس المكان ملفتاً نظر « لينين » إلى السياسة التى

يتبعها « ستالين » فى القوميات بمنطقة القوقاز (ولقد أكدت الأحداث الأخيرة صحة أطروحة «بوخارين »فى خطورة إشكالية القوميات فى الاتحاد السوفييتى والتى تهدد دائماً بنية الدولة بالانفجار ولعل هذا من المبررات المقنعة للسطو على الأفغانستان سابقة بذلك للأحداث بعد الصحوة الإسلامية العارمة فى كل بقاع الأرض . فبدلا من ترك المسلمين فى أرضها يعودون للتكامل مع أبناء عمومتهم تاريخياً تتسلط لتأتى لهم بأبناء عمومتهم وبخيراتهم أيضاً وبالتالى تكمل مهزلة الطغيان على أرض الإسلام ونهب ثرواته من ذات اليمين وذات اليسار) .

وحينما اختفى« لينين» فى يناير سنة ١٩٢٤ كان « بوخارين » يبدو واثقاً من المستقبل لأن جميع القادة بما فى ذلك « ستالين » نفسه ، يعرفون مركزه عند «لينين» ويعترفون ضمنياً بقدرته القيادية ليخلف«لينين»وكان طبيعياً أن يصبح على الأقل فى الفترة التى تلت وفاة «لينين » مباشرة من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ عقل السياسة الاقتصادية الجديدة للثورة ، بينما لم يتجاوز دور « ستالين » فى هذه الفترة التنفيذ والتطبيق لآراء منظر الثورة والحزب «بوخارين » ولقد اهتم «بوخارين» بالرابطة القوية بين الفلاحين والكادحين ، واتخذ منها أرضية لوضع الرواسى اللازمة لصناعة نامية تبرز دور الزراعة المعطاء . ولعل ما احتواه إعلانه فى ١٧ إبريل سنة ١٩٢٥ خير دليل يؤكد هذا الاتجاه . وقد جاء فيه « أيها الفلاحون نموا ثروتكم لا ثورتكم ، نموا مزارعكم ونحن معكم لا نقهركم . فتنمية الفلاحة بفضلها يمكننا مساعدة فقراء الفلاحين وحتى الفئة المتوسطة منهم » ، ومما يذكر من أفكار « بوخارين » الواقعية أيضاً فى هذه الفترة من حياته عدم اعتقاده فى إمكانات ثورة عالمية عمالية لا فى أوروبا الغربية فحسب بل حتى فى أوروبا الوسطى نفسها تحل المشاكل ، إلا إذا كان الهدف المضمر هو قهر شعوبها باسم الثورة ولتكن عليهم فى النهاية لا لهم (وقد تأكد هذا أيضاً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى شرق أوروبا ولا يحتاج إلى دليل : ربيع براغ

كمجرد مثال ومأساة حرية الإنسان) بل ذهب « بوخارين » إلى أبعد من هذا فى جرأته الفكرية حين مجاهرته فى كتاباته بعدم يقينه فى عودة الديموقراطية إلى داخل صفوف الحزب فى الاتحاد السوفيتى نفسه .
وكأنه كان يتنبأ بطغيان « ستالين » ويتوجس منه ولكن ككل الرجال لم يتهيب ولم يتراجع ، فقد أكد أن أكثر القوانين إيجابية فى الاقتصاد هو قانون حرية العرض والطلب لمساعدة نمو الإنتاج والاستهلاك على حد سواء ثم كان الحدث الهام الذى بلور القطيعة بين « بوخارين » المنظر الأول للثورة والحزب و« ستالين » المنفذ والمطبق وهو تخلى « ستالين » عن تطبيق ما عرف « بالسياسة الاقتصادية الجديدة » لبوخارين خصوصاً فى القطاع الزراعى (وما زال حتى اليوم يشكل أزمة عضوية للنظام السوفيتى ولجوءه لاستيراد الضروريات فى الاستهلاك الزراعى والحياتى كالقمح وبالتالى أكدت الأحداث مرة أخرى صدق أطروحة « بوخارين » فى هذا القطاع أيضاً) . فقد قرر « ستالين » بدلا من ذلك تبنى مبدأ التخطيط والجماعية بصفة نهائية . فما كان من « بوخارين » إلا أن يعلن صراحة فى مقال معروف « بالبرافدا » ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٨ . « بعنوان ملاحظات اقتصادى أنه لا يتفق نهائياً مع الرفيق « ستالين » فيما ذهب إليه ، وكان المفروض أن يتراجع «ستالين» أمام منظر الثورة الأول باعتراف « دائرة المعارف البولشفية الكبرى» التى وصفت « بوخارين » قبل قطيعته مع «ستالين» بأنه رائد التنظير والاقتصاد والسوسيولوجيا الماركسية لثورة أكتوبر ولكن ستالين وجه إليه ضربة الجحود الأولى حينما أوحى إلى نفس دائرة المغارف البولشفية أن تصفه فى عرض تالى بمدة لا تتجاوز أسابيع معدودة بأنه « رجعى ومرتد » دون أن تكلف نفسها حتى مشقة تبرير التناقض بين ما كتبته عنه من قبل وما تكتبه من بعد ذلك .
وانطلق موكب التنكر لمنظر الثورة بعد أن قبض « ستالين » بيد من حديد على مقاليد الحزب والثورة والشعب ، ولم يكتف بمصادرة الأقلام بل صادر الأنفاس ، وأصدر أوامره بتجريد «بوخارين» من أهم مناصبه

ولكن مكر الداهية « ستالين » لم يقف عند هذا الحد بل أوحى لبطانته بخديعة نكراء كادوها «لبوخارين» وهي أن ترجوه في القيام ببعض المهام في الخارج خدمة للثورة ، وكان الهدف الحقيقي من وراء هذا التكليف إتاحة الفرصة لخلق الشبهات حوله واختلاق اتصالات مشبوهة له في الخارج . وكان « بوخارين » المخدوع في فكره وإنسانيته يعتقـــد في أن ما قدمه للثورة من عطاء يكفل له على الأقل حرية الحركة كإنسان ولا يقع سجيناً لما صنع فكره وخطت يداه . وأثناء قيامه بجولته في باريس ضمن المهمة التي وكل بها في الخارج التقى برفيق نضال له إجتماعي ديمقراطي يعيش في المهجر بباريس هو « دان » ودار حديث شؤم بينهما احتفظ به « دان » مع آراء « بوخارين » بما في ذلك موقفه من اغتيال « كيروف » وحينما سأل « دان » بوخارين لماذا يعود إذن إلى روسيا الطاغية (يعني ستالين) فما كان من «بوخارين» إلا أن أجابه بأنه يريد من وراء عودته تصحيح مسيرة اشتراكية احتكرها ستالين لنفسه يطبقها حسب أهوائه التسلطية الدموية ، باسم جماهير جاهلة لا تعي ما يفعل بها .
وعاد «بوخارين» إلى روسيا . ولكن في ديسمبر سنة ١٩٣٦ إلى يناير سنة ١٩٣٧ نشر « دان » في **المراسلات الإجتماعية** التي كان يقوم بتوزيعها في باريس ما دار في حديثه مع « بوخارين» مدعمة برســالة مطولة حول اغتيال « كيروف » تحمل توقيعاً مستعاراً « لبلشفي قديم » (ولم يك هذا البلشفي القديم إلا «بوخارين» نفسه كما تأكد من الأبحاث العلمية التي تمت عن وثائقه عام ١٩٥٩) ولم يخف هذا على « ستالين » في حينه ، وما دار بين « بوخارين » و « دان » في باريس لأنه كان متتبعاً لنشاطه ومراقباً لخطواته في الخارج ، بل هو الذي أوحى وأذن بسفره ، حتى يتمكن منه ، ويوجه إليه تهمة « التعامل » وما أرخصهـــا من اتهام ، ولقـــد أصبحت منذ ابتداعها مجرد (صيغة تبرير) تؤهل الخصم أو المعارض في الرأي للمقصلة ، تحت ظل النظم الدكتاتورية الدموية !...

وكان ما كان ، فقد عاد «بوخارين» ليواجه الطرد من الحزب فى مرحلة لاحقة ، كما طرد رفيق له من قبل « تروتسكى » وفى ٢ مارس سنة ١٩٣٧ اقتيد المنظر الأول للثورة ومبدع أيديولوجية الحزب مع عشرين من رفاقه المناضلين ، إلى المحاكمة ليمثل أمام زبانيته ، موجهة إليه تهمة « الخيانة العظمى » وخلال عشرة أيام كان على «بوخارين» المفكر الإنسان ورفاقه أن يبحثوا عن مخرج من المؤامرات التى حيكت لهم بدقة من الرفاق ، ودون رحمة أو شفقة أو حتى عرفان بما قدم ، وشعر «بوخارين» فى هذه اللحظة الكبرى ، وهو يدافع مستميتاً عن حياته أمام جلاديه من ذنب ألصق به ولم يقترفه ، نعم شعر بمأساة الإنسان ، حينما يتجرد بنو البشر من إنسانيتهم ، وتتوحش حيوانيتهم ، فتحتد أنياب الحقد المفترسة ، وبراثن الجحود لديهم ، وانفجر «بوخارين» فى اليوم الأخير من محاكمته صائحاً « نعم.. إنى مذنب ليكن ، ولكن فى حق من ؟ نعم وبكل موضوعية لى نشاط لا أنكره معارض لهذه الثورة ، ثورة ستالين (لم يقل ثورة أكتوبر) إننى أعارضها ، فليكن إنى مذنب . ولكن ما كنت أبداً مخرباً أو جاسوساً أو خائناً لأنى مفكر ولأنى إنسان ... » غير أن «ستالين» البحاثة عن امتصاص دم رفاقه اعتبر هذا اعترافاً ضمنياً يسهل عليه مهمة فصل رأس الثورة عن جسدها . وقد كان ، ونفذ الحكم فيه بالإعدام ، ومع إعدامه — فى تصورنا — أعدمت مشروعية الفكر المادى وإلى الأبد ، كأساس موضوعى للعلاقات بين الرفاق فى كل الثورات الدكتاتورية المعاصرة . لأنها علاقات جوهرها الجحود والتربص والتنكر ومآلها القطيعة والنكران .

* * *



الفصل السابع

مع رواد الفكر العالمى
المادى والروحى
وتأملات فى مصير الانسان
« جيتون : المفكر الروحى ، والزمن والخلود »

بسم الله الرحمن الرحيم

مع رواد الفكر العالمي

المادي والروحي

وتأملات في مصير الانسان

« جيتون : المفكر الروحي ، والزمن والخلود »

(J. GUITTON)

قادتنا تأملات مع رواد الفكر العالمي ومصير الإنسان في الفصل السابق إلى طرح المصير المأساوي للإنسان في الفكر المادي ، من خلال أقدر عمدائه في القرن العشرين « بوخارين » الرأس المفكر للثورة والحزب في الاتحاد السوفييتي ، وكيف قيد إلى ساحة الإعدام ، مرغماً من قبل جلاده « ستالين » على أن يعلن أنه « داعر » لينقذ رأسه من الإعدام ، ورغم إعلانه نفذ الحكم فيه . وذهب « بوخارين » ضحية لما صنع فكره وخطت يداه « لمادية جدلية » تزعم إنقاذ الإنسان على حساب إنسانيته وفي غيبة مرجع احالته الروحية التي تحتكم في قمة اختياراتها لخالق الوجود رهبة ورحمة . ووقف « بوخارين » مشرع المادية الصارم حائراً أمام المقصلة ليجني ثمار تسلط حيوانية الافتراس والتدمير التي أجازها في الإنسان . فما تحقق فعلا من حتمية لماديته ، إنه كان أول ضحاياها في مسلسل الجحود والنكران ، وتلاه جلاده « ستالين » بدوره ، وغيره من قبله ومن بعده الكثير . . . والقائمة طويلة يضيق المقام بحصرها .

واستخلصنا من طرحنا لمصير هذا الرجل في مقالنا أنه بإعدامه «أعدمت مشروعية الفكر المادي رغم أصالته منهجياً وإلى الأبد كأساس موضوعي

للعلاقات بين الرفاق فى كل الثورات الدكتاتورية المعاصرة ، لأنها علاقات أصبح جوهرها التربص والوشاية والغدر والكيد والتنكر ، ومآلها القطيعة أو التصفية والاغتيال » .

واليوم تقودنا تأملاتنا ، فى هذا المقال ، إلى الشاطىء الآخر الروحى من الفكر العالمى أو الطرف النقيض لغرب تغلغلت حضارته فى بواطن النفعية والمصلحية والاستهلاك .. استهلاك تجاوزت شراهته السلع والكماليات ليفترس القيم والمبادىء والضعفاء ، ويصل فى نهاية وجبته الغذائية لإبتلاع الإله .

لقد ساد تيار الفكر المادى وسيطر بمدارسه على حضارة الغرب متحفظاً فى البداية على العصور الوسيطة بميتافيزيقياتها وتجريدها لينتهى بتفنيدها ورفضها . ولكن رغم هذه السيطرة للاتجاه المادى فى الفكر الغربى ، بقى تيار روحى متواضع تمثله قلة نخبوية من قادة الفكر الفلسفى ، تصارع بإصرار أمواج إغراقها ، مدافعة عن مشروعية بقائها من « بسكال » إلى « برجسن » وما تلاهما على سبيل المثال ، متمسكة بخيطها الروحى الرقيق تزكية بعقلانية واعية محاولة النجاة من يم إعصار المادية العاتية ، ومحيط عواصفها المتسلطة والتى عمت سماء الغرب بسحبها وضبابها كما غطته بإنجازاتها التكنولوجية المتطورة التى دعمت طغيانها ليبرالية كانت أم ماركسية يمينية أم يسارية . فإن كانت اليسارية المتمركزة حول الماركسية تبنت المادية كشعار أيديولوجى فكراً وأسلوباً ، فالليبرالية الرأسمالية تعيشها حياتياً فعلا وممارسة ، دون ما حاجة لشعار أو غطاء أيديولوجى يبرر سلوكها واحتكارها .

فى خضم هذا التسلط العارم للمادية فى الغرب يرتفع صوت شيخ وقور ما زال ممسكاً بالخيط الروحى وباستماتة ، محاولا مده إلى القرن الحادى والعشرين إنه « جان جيتون » رائد من رواد الفكر الروحى المعاصر فى أوروبا ، والذى ما انفك منذ الخمسينات يدافع بقناعة معقلنة

عن انتمائه واختياراته سواء في السربون كأستاذ أو فى جل مؤلفاته ، حتى يومنا هذا في مقعده بالأكاديمية الفرنسية (مجمع الخالدين) بفرنسا وهو على أبواب الثمانين رغم ثقل الشيخوخة وهمومها . ولقد ساعده أسلوبه « النرمالى » (نسبة لمدرسة المعلمين العليا الشهيرة بباريس) التعليمى ، وقدرته فى التكوين المعمق عبر الفلسفة الإغريقية وفلسفة الزمن والخلود على شرح أطروحاته بوضوح مسانداً لما تبقى فى ضمير العصر من قيم ومثل خالدة . يمكن بفضلها تجاوز شهوه الإشباع المؤقت وتكتيك الرغبات الزائلة واستراتيجية الاستهلاك المفتعل . . .

كثيراً ما شدنا إليه هذا الشيخ الطيب الوقور وهو يجتاز بهدوء وتأمل حديقة « لكسمبورج » الشهيرة فى الحى اللاتيني بباريس وبخطوات مترددة ولكنها مستمرة ، تجسد خطوات معاناه الإنسان في حديقة الزمن، وفى درب الخلود .

لقد حصل «جان جيتون» بعد الإجازة فى الفلسفة سنة ۱۹۲۳ على دكتوراة الدولة سنة ۱۹۳۳ عن « الزمن والخلود » وعمل فى التدريس بجامعة منبليه بفرنسا . وسجن عام ١٩٤٠ كمقاوم فرنسى لم يقبل الهزيمة أمام طغيان النازية وتسلطها ، وعرف آلام السجن والتعذيب لمدة خمسة أعوام . وعين بعد استعادته لصحته أستاذاً بجامعة ديجون ، وفى عام ١٩٥٤ دخل السربون كأستاذ « للفلسفة الأساسية وتاريخها » ثم انتخب عضواً مقيماً فى الأكاديمية الفرنسية ، بعد أن حصل على جائزتها وكان انتخابه عام ١٩٦١ فى المقعد الذى خلا بوفاة المفكر الكبير « ليون بيرار » ، وما زال يشغل هذا المقعد حتى يومنا هذا .

لقد انطلق «جان جيتون» من أرضية عقلانية ليطرح فلسفياً الاشكاليات الأساسية للإنسان محاولا إعطاء إجابات موضوعية لهذه الاشكاليات مستنيراً بحوار السماء وبالكتب المقدسة ، ولقد أهله تخصصه فى الزمن والخلود عند فلاسفة الإغريق وعند « القديس أوجستينوس » فى مطلع العصور

الوسيطة ومن خلال فلسفة « نيومان » أن يتجاوز الغموض الكنسى ؛ منقياً للميتافيزيقيا مما علق بها من ضباب الالتباس ، مركزاً على مصير الإنسان أمام صعوبة الاعتقاد في هذا العصر . ولعل مقارنته فى هذا الموضوع بين « رينان » و « نيومان » وموقفهما من الكنيسة ومن تعاليمها ، ومدى التغير الذى يقع في العرض لا فى الجوهر ، وقدرة تحرك الإيمان في إطار الزمن سلبياً أو إيجابياً تعتبر من التفاسير القيمة والجديرة بالدرس أو التأمل . .

ولقد وقف « جيتون » المفكر الروحى موقفاً مرناً من ما أسماه (مشكل المسيح) — عليه السلام — . ولقد ارتكز على الحكمة (المجلد الثالث من إنتاجه) ليقوم بعرض بناء للحب الإنسانى كأسمى درجات التسامى بمصيره . هذا المصير المتأزم فى الضمير المعاصر بين فورية عطاء التكنولوجيا كمعرفة والعلم كأساس . وبين إشباع غرائزى وتطلع غير موضوعى جعل من الرفاهية غاية لا وسيلة ، بينما الغاية هى تأصيل إنسانية الإنسان لا تدميرها باسم الترفيه والرخاء . فهل يمكن الرقى للإنسان بنفاقه وريائه ، وارتقاؤه بغشه وزيفه وافترائه ، وتحقيق مصيره بفنائه ؟ إن المجلد الرابع من إنتاج « جان جيتون » عن لقاء الأديان وحوار مع الرواد يحاول الإجابة على هذه التساؤلات فى إطار تكثيف المناقشة لا الهروب منها ، وتوضيح كل الأبعاد دون خلفيات أو مغمضات ومضمرات ، وهذا ما يجعلنا نطرح عقلانية « جيتون » بعد تنقيتها من شوائب التهميش الإغريقى فى تجريده ، والوسيطى المسيحى فى تغميضه ، لتحتفظ بلبها وجوهرها المتحرر من كل التباس : لتسهم إلى جانب العقلانية المسلمة الواعية فى العودة إلى صفاء الإنسان فى كل مكان ، ليرى حقيقة مصيره أمام الزمن المتطلع فى موكب الخلود ، منذ مسيرة الوحدانية الحنيفية لإبراهيم (عليه السلام) ومعاناة وآلام المسيح (عليه السلام) ليتمركز هذا المصير فى أجل وأكمل وأتم صور عقلنته الممثلة فى الإسلام

كعقيدة شاملة متكاملة لإنقاذه عبر كل الأزمنة فى مسار الوجود بما تضمن أستمرار إشراق حوار السماء مع الأرض ، برضاء من الخالق وارتضاء من المخلوق ، دون قهر وإكراه أو زلفى وتغميض .

إننا لنتفهم معاناة « جيتون » كمفكر غربى يتحدث عن (صعوبة الاعتقاد) لديهم فى القرن العشرين بل وفى أهم مؤلف له يحمل هذا العنوان ، ونعى مقدار (العزلة) التى يعيشها كتيار فكرى روحى بين التيارات الغالبة المتسلطة فكراً وشباباً ،قولا وفعلا باسم المادية فى الغرب ونقدر إصراره على الاستمرار فى موقعه والثبات أمام كل الأعاصير ، التى تهب من ذات اليمين أو ذات اليسار باسم الرفض والاعتراض تارة ، وأخرى باسم الفوضوية أو الانشقاقية أو العنصرية أو العبثية الواعية ، أو البعد الواحد ، أو الردة والارتداد ... إلى غير ذلك من المسميات الرائجة فى حلبة الصراع والتفنيد ، وكلها تيارات جاءت كإفرازات موضوعية لحركة تاريخ تمرد على هيكليته المتحجرة فانفجر وتفجر بعد أن أزاح عن عاتقه سلاسل القهر والتقوقع والمعاناة فى فترة تجاوزت الألف عام من عصورهم الوسيطة المظلمة ، وحينما أشع العقل العربى المسلم بنوره على الغرب ليسهم فى نهاية الفكر الوسيط القاصر لديهم بتجريده وتجرده ومدرسيته وميتافيزيقيته واغترابه بالتالى عن إشكاليات الإنسان والواقع ، فحرك أمثال « توماس الكوى » كما حرك خصومه من غفلتهم ، وبدأت رياح اليقظة والنهضة تهب على النسق الكنسى السكونى متحفظة باسم عقلانية مترددة واجفة فى مواجهاتها لتتحول إلى بشائر لصحوة ناقدة بمدارسها الفلسفية ، مؤهلة بذلك لعصر الأنوار والمعارفين والمنهجيين للفكر حول الإنسان والطبيعة على حد سواء ، محاولين التساؤل والتعليل بدلا من المسلمات والقياس والتدليل ، والملاحظة والتجريب بدلا من الاستدلال والتجريد ، وبذرت بالتالى أرضية لجذور الرفض وفروعاً وأغصاناً للتمرد ، وضعية أو تطورية أو داروينية أو ماركسية أو وجودية

وطرحت نفسها كبدائل في حركة التاريخ وجسدت الخطيئة مرة أخرى في المسيحية وما حولها ، بعد المسيح (عليه السلام) واضحة حداً ، وبصفة محكمية ، لكل حوار تم في غيبة وعي الإنسان ، ولكن ـ الغلاة ولكل موقع ولكل عصر غلاته ـ اقتنصوها فرصة سانحة ، لتصفية الحسابات مع التاريخ نفسه باسم علمنة وفلسفة التاريخ ، كل يثأر بطريقته وحسب انتمائه وأهوائه وتذوقاته أو آلامه ومعاناته ... وهكذا عزل أو انعزل موكب الروحية في الغرب عن الحركة العامة للفكر المؤثر ليصبح موضعاً للتأرية وطعناتها فكانت أنات « جيتون » في مؤلفه القيم بعنوان « **صعوبة الاعتقاد في هذا العصر** » . ولكن صعوبة منهم وإليهم ...

أما نحن فحركة التاريخ وموكب الفكر لدينا لم يعرفا التحفظ بعد الجمود ليؤول إلى مسلسل النقد والرفض والتفنيد وطرح البدائل ، كما حدث لديهم ، فالعقل بالنسبة لنا لم يأت بعد قديم ووسيط وإنما عاصر وصاحب الوحي من الصيحة الأولى « **اقرأ باسم ربك الذي خلق** »(١) اقرأ وتدبر ، ولكن لا تطغى ... وصار موازياً له ومكملا على درب المعرفة والوجود في الإقناع والاقتناع والبرهنة . فإن كانوا قد عرفوا في الغرب حوالى الألف عام من الظلمات الوسيطة لتحجر التاريخ وتجمد العقل فقد عرفنا الألف عام أو ما يقرب من الأنوار : المشرقية والمغربية الأندلسية وبالتالي يصعب التكلم عن صعوبة الاعتقاد في أمتنا عبر هذا العصر وإنما يصعب العكس ... فعقيدتنا ، ولله الحمد ، أعطت لنا قناعة الإيمان الواضح والاعتزاز بذاتية التاريخ المشرق في حضور الإنسان وفي كل زمان ومكان ، كما أعطت لنا نهجاً ووسائل موضوعية في التطبيق بما يضمن استمرارها في بناء صرح الأمة المتكافلة وصيانة مكتسباتها ، بتكتل وتلاحم طبقاتها وجماعاتها ، دون ميز أو استغلال ويحقق بالتالي توازن وسعادة النفس ، وإشراق الذات ، وإنقاذ مصير الإنسان .

***

---

(١) العلق : ١

محتويات الكتـــاب

الصفحة

تصدير ٥

الفصل الأول : أربعة عشر قرناً والإسلام ها هوذا يتحدى يا خاتم الأنبياء ٧

الفصل الثانى : أمتنا العربية بين الإسلامية والعلمانية ١٣

الفصل الثالث : قضية إنسان الإسلام ووسائل الإعلام الأجنبية . . . ٢٧

القضية منذ البداية ٢٩

وحتى العصر الحديث ٣١

موقف وسائل الإعلام الأجنبية والواقع المعاصر للإسلام

والمسلمين بين الخلط والتغليط ٣٣

ووسائل الإعلام الأجنبية وطبيعة المواجهة ٣٤

الفصل الرابع : قضية النمو الديموغرافى ومحو الأمية ٣٩

النمو الديموغرافى مشكلة أم إشكالية ٤١

الحل التخصيصى ٤٢

تصنيف المجتمعات ٤٣

تدخل المشرع والحلول الجذرية ٤٦

عقلية التخلف والمضاربات الكونية ٤٨

الفصل الخامس : رأى فى اشكالية الأمية ودور الكتاتيب القرآنية فى محوها ٥١

تمهيــد ٥٣

طرح اشكالية الأمية ٥٣

نظرة موجزة فى العوامل المزكية للأمية حالياً ٥٥

دور الكتاتيب القرآنية فى محو الأمية وشروط إنجاحه ٥٧

الفصل السادس : مع رواد الفكر العالمى المادى والروحى وتأملات فى مصير الإنسان :

« بوخارين : المفكر المادى ، ومأساة الإنسان » ٦١

الفصل السابع : « جيتون : المفكر الروحى ، والزمن والخلود » . . . ٧١

محتويات الكتاب ٧٩

رقم الايداع ٨٠/٥١٧٧
الترقيم الدولى ٥ ـ ٠٧ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

هذا الكتاب

● بمناسبة نهاية ـ قرن من مسيرة الاسلام الخلاقة وصموده ·· وبداية القرن الخامس عشر الهجرى ·· الذى نأمل أن يكون بداية خير وبركة ـ **للانسانية كلها** ـ فى مشارق الأرض ومغاربها · وذلك بتحرر الفكر البشرى ـ من قيود التعصب والمنفعة والأنانية ـ والالتزام بالمنهج العلمى السليم والنظرة الموضوعية الشمولية ـ الباحثة عن الحق وخير الانسانية وسعادتها ··

نتقدم بهذه الدراسات « **نظرات اسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى** » ·· تلبية للرغبة الملحة لقراء العربية ـ فى العالم العربى والاسلامى ـ وذلك كما سبق أن ذكرنا فى مقدمة ـ المجموعة الأولى ـ « **تأملات اسلامية فى قضايا الانسان والمجتمع** » ·· للاستفادة من انتاج هذا المفكر الاسلامى الكبير ·· فى المحيط العربى والاسلامى ·· باللغة الفرنسية أساسا ·· الى جانب اللغة الانجليزية ·

● والمؤلف غنى عن التعريف ـ فهو الداعية الاسلامى الكبير ·· وأحد المفكرين البارزين على المستوى العالمى ـ **الأستاذ الدكتور رشدى فكار** ـ الأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس ـ بالرباط ـ والأستاذ الزائر بالجامعات العربية والأوروبية ·· والعضو المشارك فى أكاديمية العلوم « مجمع الخالدين » بفرنسا ـ وعضو الهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية ··

والمرشح لدى الأكاديمية السويدية ـ منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ لجائزة نوبل فى الأدب ··

● وهذه الدراسات تقع فى سبعة فصول ·· كل فصل منها يتناول قضية ـ منفصلة ـ من قضايا الانسان والمجتمع ·· وهذه الفصول جميعها ـ تلتقى ـ فى نظرة شمولية من منطلق اسلامى ، يحتكم الى العقل ومناهج العلم ـ بعيدا عن التعصب والانفعال ـ بل من واقع ما كتبه بعض الغربيين حيث يقول : « ان عبقرية الاسلام وقدرته الروحية ، لا يتناقضان ألبته مع العقل كما هو الحال فى الأديان الأخرى ، بل يتمشى أساسا مع واقع الانسان ·· كل انسان ·· بما له من عقيدة مبسطة ، ومن شعائر عملية مفيدة » ··

وليطرح فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى ـ والقرن العشرين الميلادى ـ أن لاصلاحية لانسان فى غيبة التزامه بتعاليم السماء ··

● وكما ذكرنا من قبل · أنه نظرا لتعدد الاستشهادات والنقل من هذه ... الهامة فى البلاد العربية ·· نشير بعد المراجعة والاستئذان ـ من سيادة ... هذا هو النص الكامل والوحيد ـ باللغة العربية الذى لم يلحقه أى تحريف ...

ومن الله نستمد العون والتوفيق ؟

